سطور من حياة الإمام المجدد

حسن البنا

Hassan Albanna



بدر محمد بدر

Badr Mohamad Badr



بدر محمد بدر

الطبعة الأولى للمؤلف

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/١٧٦٣٧م

الترقيم الدولى: I.S.B.N

977 - 17 - 4997 - 8

الإهداء

■ إلى روح الإمام الشهيد حسن البنا، مجدد الإسلام وباعث النهضة، الذى بذل وضحى من أجل دينه وأمته، فجزاه الله عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

■ إلى كل من أخلص لهذه الدعوة المباركة، حتى اختلطت بأنفاسه، وتفانى فى خدمتها على بصيرة، وضحى من أجل نصرتها والدفاع عن مبادئها العظيمة.

■ إلى زوجتى الوفية، التى يفيض قلبها حبًا لدينها ودعوتها، وعطاءً لرسالتها ومبادئها، وإلى أبنائى الأحبة، الذين أرجو لهم التوفيق والسداد، على خطى دعوتنا المباركة.

إليهم جميعًا أهدى هذه السطور

مقدمة

سيظل الإمام الشهيد حسن البنا نبعًا فياضًا، وكنزًا ثمينًا، مهما طالت الأزمان واختلفت الأمكنة، يتأمل فى حياته الباحثون، ويتعمق فى نظراته الدارسون، ويناقش منهجه العارفون.. لقد نجح هذا الرجل العظيم فى إحداث التغيير الإيجابى، الذى كانت الأمة الإسلامية فى أشد الاحتياج إليه، على أساس من الفهم الشامل للإسلام، والمنهج الوسطى الرشيد، ولا يزال هذا التغيير مؤثرًا فى حياة الأمة. وبالرغم من استشهاده قبل أكثر من نصف قرن، لا تزال دعوته ملء السمع والبصر، ولا تزال جماعته الأكثر حضورًا فى الساحات السياسية والاجتماعية والثقافية والتربوية فى كل بلاد المسلمين، ولا يزال منهجه يقرب الناس من دينهم، ويردهم إلى مقاعد المجد الأولى.

وفى الذكرى المئوية لميلاد الإمام الشهيد المجدد حسن البنا، أحببت أن أشارك بهذه السطور، عسى أن يكتبنى الله فى زمرة السائرين على منهجه.. منهج الحبيب محمد ﷺ، وقد حاولت أن ألتزم -وأنا أكتب هذه السطور- بالحقائق الناصعة، وبسهولة العبارة وبساطتها لتناسب إيقاع العصر، فهى تتوجه خاصة للشباب والفتيات، آملاً أن أكون موفقًا فى عرض هذه السيرة الزكية، لهذا الرجل العظيم، والله أسأل أن ينفع بهذا الجهد، وأن يتقبله منى، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات..

بدر محمد بدر
badrm2003@yahoo.com
محمول: ٠١٠٢٥٥٢٣٥٤

غرة ذى الحجة ١٤٢٧هـ
٢٢ من ديسمبر ٢٠٠٦م

الميلاد والنشأة

وُلد حسن أحمد عبدالرحمن البنا فى أسرة ريفية بسيطة، بساطة أبناء الريف المصرى، كانت تعمل بالزراعة فى قرية «شمشيرة» وهى إحدى قرى دلتا نهر النيل، وتقع بالقرب من مدينة رشيد (محافظة البحيرة)، وتطل على نهر النيل فى مواجهة بلدة «إدفينا» الأكثر شهرة، وكانت «شمشيرة» تتبع مركز فوة، أحد مراكز محافظة «كفرالشيخ» حاليًا، وكان جد حسن البنا -رحمه الله- فلاحًا من صغار الملاك بالقرية، معروفًا بين الناس بالصلاح والتقوى وحب الخير.

نشأ الابن الأصغر «أحمد عبدالرحمن» -والد حسن البنا- بعيدًا عن حرفة والده (الزراعة) والتحق بكُتّاب القرية ليحفظ القرآن الكريم، كعادة أبناء الريف، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدينة الإسكندرية ليدرس العلوم الشرعية المتخصصة، حيث التحق بجامع القائد «إبراهيم باشا» -وهو فى الإسكندرية فى ذلك الوقت، كالأزهرالشريف فى القاهرة- فى دراسة علوم الدين والشريعة والفقه واللغة العربية، وفى أثناء الدراسة بحث الشيخ «أحمد» عن وسيلة لكسب الرزق ليستعين بها على استكمال دراسته، ويخفف من عبئه المادى على والده، حتى التحق بأحد أكبر المحلات المتخصصة فى إصلاح وبيع الساعات فى مدينة الإسكندرية، وسرعان ما أتقن الصنعة وبرع فيها، حتى أصبحت بعد ذلك حرفته فى الحياة، التى يرزقه الله من خلالها، ومن هنا جاءت شهرته بـ«الساعاتى».

وبعد أن انتهت رحلته فى طلب العلم، عاد الشيخ أحمد عبدالرحمن من الإسكندرية إلى قريته «شمشيرة» عالمًا وفقيهًا وواعظًا، وخبيرًا كذلك فى صيانة وإصلاح الساعات، ثم تزوج من ابنة أحد كبار تجار المواشى بالقرية، وبعد أن تزوج، فكر فى أن يغير من طريقة حياته وظروفه وأحواله، فعزم على الرحيل، وانتقل -ومعه والده وزوجته- إلى قرية «المحمودية» وافتتح فيها محلاً لصيانة وإصلاح وتجارة الساعات، بعد أن تنازل لشقيقه الأكبر «محمد» عن حصته فى الأرض الزراعية، التى تركها له الوالد، ولم يتوقف عن تحصيل ونشر العلم الشرعى.

وفى العام نفسه الذى انتقل فيه الشيخ أحمد عبدالرحمن البنا، إلى قرية «المحمودية»، التى تحولت الآن إلى مدينة تتبع محافظة البحيرة شمال الدلتا، وُلد ابنه الأكبر «حسن» فى يوم الأحد ٢٥ من شهر شعبان عام ١٣٢٤هـ -الموافق ١٤ من شهر أكتوبر عام ١٩٠٦، فسعد به الشيخ أحمد أيما سعادة، كما سعد به الزمان وأمة الإسلام، وأذن والده فى أذنه اليمنى، وأقام الصلاة فى أذنه اليسرى عملاً بالسنة النبوية الشريفة، ليكون أول ما يسمعه المولود: الأذان والإقامة وشهادة التوحيد.

استقر الشيخ أحمد عبدالرحمن البنا فى القرية، وكان يخطب الجمعة ويؤم المصلين فى المساجد، ويصلح بين المتخاصمين والمتنازعين، وتم اختياره مأذونًا شرعيًا، وظل يعمل بالمأذونية حتى بعد أن انتقل إلى القاهرة مع نجله الأكبر «حسن» عندما التحق بمدرسة دار العلوم (كلية دار العلوم الآن)، فاختير مأذونًا شرعيًا لمنطقة «الصليبة» بحى السيدة زينب، أحد أحياء القاهرة القديمة.

اشتغل الشيخ أحمد بعلوم الحديث، وبرع فيها، حيث اتجه إلى مسانيد الأئمة الأربعة: أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل، يرتبها ويعيد تبويبها ويعلق عليها ويشرحها بأسلوب عصري جذاب، وقد أنجز منها: «بدائع المنن في جمع وترتيب مسند الشافعي والسنن» و«الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني» مع مختصر شرحه «بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني». . ويعتبر «الفتح الرباني» هو المشروع الأكبر في حياة الشيخ أحمد عبدالرحمن البنا العلمية؛ إذ أمضى في تأليفه مدة ٣٨ عامًا متواصلة، حيث بدأ فيه عام ١٣٤٠هـ حتى وافاه الأجل عام ١٣٧٨هـ، وهو في منتصف الجزء الثاني والعشرين، ولم يبق منه إلا الجزءان: الثالث والعشرون والرابع والعشرون.

ولا عجب. . فمسند الإمام أحمد بن حنبل، هو أكبر مدونات الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ، حيث اشتمل على ما يقرب من ثلاثين ألف حديث شريف، واستعصى ترتيبه وشرحه على أعلام علماء المسلمين، طوال ما يقرب من عشرة قرون كاملة، حتى قيّض الله له الشيخ أحمد فاجتهد وثابر من أجل إنجاز ترتيبه وشرحه، والتدقيق في ذلك دقته في إصلاح الساعات وضبطها. . تقبل الله منه.

تربية إيمانية:

لقد حرص العالم والفقيه الشيخ أحمد على تربية أبنائه، تربية إيمانية علمية صالحة، حتى أنه جعل كل واحد من أبنائه يدرس العلم الشرعي

على يديه، ويتفقه على أحد المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة، فكان المذهب «الحنفى» من نصيب الابن الأكبر «حسن»، والمذهب «المالكى» من نصيب الابن الثانى «عبدالرحمن» والمذهب «الحنبلى» من نصيب الابن الثالث «محمد»، أما المذهب «الشافعى» فكان من نصيب الابن الأصغر «جمال الدين» وهو الأستاذ جمال البنا الكاتب المعروف الآن بكثرة مشاغباته الفكرية والفقهية.. ولعل الشيخ أحمد والد حسن البنا كان يهدف من وراء هذا الأسلوب فى التربية إلى تنشئة أبنائه على اتساع المدارك، وعمق النظرة الفقهية، والتبحر فى علوم الدين والفقه، فتحقق له ذلك بالفعل، فكان إذا عُرِضت له قضية فقهية، جمع الرجل أبناءه، ليعرف آراء المذاهب الأربعة فيها، ولم يمنعه هذا الحرص على تدريس العلم الشرعى لأبنائه، من أن يرسلهم إلى المدارس الرسمية ليتلقوا التعليم المدنى، ويحصلوا على الشهادات الدراسية المختلفة.

فى هذا المحضن الإيمانى والعلمى والفقهى الربانى، نشأ «حسن البنا» وتأثر بوالده، وتطبع بالكثير من طباعه وخصاله، وتعلم على يديه حرفة إصلاح الساعات، بل وشاركه بالعمل فى محله، حتى أنه افتتح محلاً خاصًا به، فى إحدى مراحل حياته المبكرة، كما أتقن أيضًا صناعة تجليد الكتب.

وهو فى الثامنة من عمره (١٣٣٣هـ - ١٩١٥م) التحق حسن البنا بمدرسة الرشاد الدينية، واستمر فيها لمدة أربع سنوات، وكان صاحب المدرسة هو العالم الجليل الشيخ محمد محمد زهران، الذى تأثر به

«الشبل» حسن أعظم التأثر من كثـرة ملازمته والتلقى على يديه، حتى أنه وصفه فى «مذكرات الدعـوة والداعية» بأنه «الرجل الذكى الألمعى، العالم التقى، الفطـن اللقن الظريف، الذى كان بين الناس سـراجًا مشـرقًا بنور العلم والفضل، يضيء فى كل مكان..».. ويصف مدرسـة الرشاد بأنها «كانت كالمعـاهد الرائعة، التى تعتـبر دار علم ومعهد تربيـة على السواء، ممتـازة فى مادتهـا وطريقتـهـا..».. وعن أسلوب صاحب المدرسـة فى التـدريس والتربيـة يقول حـسن البنا: «كان للرجل أسلوب فى التـدريس والتربية مـؤثر ومنتج، رغم أنه لم يدرس علوم التربية، ولم يتـلق قواعد علم النفس، فكان يعتمـد -أكثر ما يعتمد- على المشـاركة الوجدانية بينه وبين تلامـذته، وكان يحاسـبهم على تصـرفاتهم حـسابًا دقيـقًا، مـشربًا بإشعـارهم بالثقـة بهم والاعتـماد عليـهم، ويجازيهم على الإحـسان أو الإساءة جزاءً أدبيًا، يبعث فى النفس نشـوة الرضا والسرور مع الإحسان، كما يذيقها قوارص الألم والحزن مع الإساءة..».

كان العالم الجليل الشيخ محمد محمد زهران، أحد الرجال المخلصين الذين وضعهم الله فى طريق «حسن البنا» فى تلك السن المبكرة، فساهم فى تكوين البنية الإيمانيـة والثقافية والسلوكيـة لهذا الشبل، التى أورقت وأزهرت وأثمـرت الكثيـر والكثيـر.. يقـول «حـسن البنا» عن الشـيخ «زهران» فى مذكـراته: «لقد كنا نحب أسـتاذنا حبًـا جمًا، رغم مـا كان يكلفنا من مـرهقات الأعمـال، ولعلى أفدت منه -رحمـه الله- مع تلك العاطفة الروحية، حب الاطلاع وكثرة القـراءة؛ إذ كثيرًا ما كان يصحبنى

إلى مكتبته، وفيها الكثير من المؤلفات النافعة لأراجع له، وأقرأ عليه (فقد كان كفيفًا) ما يحتاج إليه من مسائل، وكثيرًا ما يكون معه بعض جلسائه من أهل العلم، فيتناولون الموضوع بالبحث والنظر والنقاش، وأنا أسمع..».

وتأمل معى -عزيزى القارئ- وقارن بين هذا الأسلوب البديع الذى يتحدث به «حسن البنا» عن أساتذته ومعلميه فى هذه المرحلة من العمر، وكيف أنه يحمل لهم كل هذا الحب والتقدير والإعزاز، وبين موقف الدكتور طه حسين فى كتابه «الأيام» وهو أيضًا يتحدث عن أساتذته ومعلميه من علماء الأزهر الشريف، وكيف أنه قدم لهم صورة سلبية منفرة.. لا تليق بمن علموه العلم الشرعى.

فى المدرسة الإعدادية:

وعندما بلغ «حسن» الثانية عشرة من عمره، ترك مدرسة الرشاد الدينية، بعد أن أتم حفظ نصف القرآن الكريم تقريبًا (من أول سورة البقرة وحتى سورة الإسراء)، وطلب من والده أن يلتحق بالمدرسة الإعدادية (وهى تعادل منهج المدارس الابتدائية الآن)، ورغم معارضة والده، الذى كان حريصًا على أن يحفظ ولده كتاب الله تعالى، إلا أنه وافق بعد أن تعهد له «حسن» بأن يتم حفظ القرآن الكريم من منزله، وبالفعل التحق بالمدرسة الإعدادية، وواظب على حفظ القرآن الكريم، كما حرص على الذهاب إلى محل والده لتصليح الساعات، لمساعدته فى مهنته.

انتظم «حسن» فى الدراسة وبدأت ثمار مدرسة الرشاد الدينية تظهر فى سلوك هذا الشبل الواعد، فأسس مع زملائه فى المدرسة الإعدادية «جمعية الأخلاق الأدبيـة» باقتراح من مـحمد أفندى عبدالخالق مدرس الحساب والرياضـة بالمدرسة، ورأس «حـسن» مـجلس إدارتها، وكـان أعضـاؤها يتواصـون فيما بينـهم بالتمسك بآداب الدين وأداء الصلوات فى أوقـاتها، والحرص على طاعـة الله والوالدين، واحترام من هم أكـبر سنًا ومقـامًا، ولا شك فى أن تربية «مـدرسة الرشاد الدينية» كـان لها أثرها الواضح فى أن يتبوأ «حسن» هذه المنزلة الرفيعة بين زملائه، حتى أنه فى نفس الفترة، اشترك فى تأسيس جـمعية أخرى تحت اسم «جمعـية منع المحرمات» التى استـمرت تؤدى عـملها فى «النصح والتـوجيـه والإرشاد، والتـحذير من ارتكاب الآثام والمعاصى والذنوب» لمدة ستـة أشهر، حتى اكتشـفها الناس وبدأوا يضايقونها، فقللت نشاطها وغيرت أسلوبها. .

ونلحظ هنا -فى هذه المرحلة- أمـرين، الأول: أنه اسـتقـر فى وعى «حـسن البنا» وفى وجدانـه منذ تلك المرحلة المبكرة من حـياته، ضـرورة العـمل للإسلام، وتـوعيـة الناس ونصـحهم وإرشـادهم وتحـذيرهم من المعاصى والآثام والذنوب. . الأمر الثانى: ضرورة العمـل الجماعى، وأن الجماعة مهما كانت صغـيرة، وعدد أفرادها قلائل، فهى أفضل من الجهد الفردى مـهما كان كـبيرًا. . وهى المعانـى التى نمت فى داخله بعد ذلك، وشكلت أساس منهجه وحركته. .

وبعد عـام ونصف العام من الدراسة، قـرر مجلس مديرية «مـحافظة البحيـرة»، إلغاء نظام المدارس الإعدادية، وتحويلها إلى مـدارس ابتدائية، وكان «حسن» قـد بلغ الثالثة عشرة والنصف من عـمره، وأتم حفظ الربع الثالث من القرآن الكريم حتى سورة «يس».. وكـان أمامه أحد طريقين: إما أن يتقدم إلى التعليم الدينى الأزهـرى، فيلتحق بالمعهد الأزهرى بمدينة الإسكندرية، وإما أن يتـقدم إلى مدرسـة المعلمين الأوليـة بمدينة دمنهور، ليختـصر الطريق ويكون -بعد ثلاث سنوات- معلـمًا فى المدارس الأولية (تعادل الابتدائية الآن)، فاختار الطريق الأخير، وقيض الله له من تغاضى عن شرط السن (كان أقل بستة أشهر من سن القبول)، وقبلت الإدارة منه تعهـده بحفظ الربع الـرابع للقرآن الكريم، وصـرحت له بأداء الامتـحان التحريرى والشفهى فأداهما بنجاح..

قضى «حـسن البنا» ثلاث سنوات فى مـدرسة المعلمين الأوليـة بمدينة دمنهـور من عام (٣٨ إلى ١٣٤١هـ) الموافق (٢٠-١٩٢٣م) وهى الفتـرة التى أعقبت ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال البريطانى، وشهدت تلاحمًا وطنيًا رائعًا فى مواجهة الإنجليز، وشارك «حسن البنا» فى الواجبات الوطنية التى أُلقيت على كواهل الطلاب وقتها من مسيرات ومظاهرات وغيرها، إلا أن عاطفة التصوف والعبادة كانت أكثر إشعاعًا فى نفسه ووجدانه.

كانت «حلقة الذكر» فى المسجد الصغيـر بقرية «المحمودية» التى يقيمها «الإخوان الحصافية»، وهى إحدى الطرق الصوفـية التى تنتشر -وأمثالها- كثيرًا فى القرى المصرية، قد اجتـذبت «حسن» وأُعجب «بأصواتها المنسقة

ونشيدها الجميل وروحانيتها الفياضة، وسماحة هؤلاء الذاكرين من شيوخ فضلاء وشباب صالحين، وتوطدت الصلة بينه وبينهم، وازداد تعلقه بهم وبشيخهم مؤسس الطريقة الشيخ حسنين الحصافى، خصوصًا بعد أن قرأ كتاب «المنهل الصافى فى مناقب حسنين الحصافى».. يقول عنه فى «مذكرات الدعوة والداعية»: كان عالمًا أزهريًا، تفقه على مذهب الإمام الشافعى، ودرس علوم الدين دراسة واسعة، وامتلأ منها وتضلع فيها، ثم تلقى بعد ذلك الطريق على كثير من شيوخ عصره، وجدّ واجتهد فى العبادة والذكر والمداومة على الطاعات، وكانت دعوته مؤسسة على العلم والتعليم والفقه والعبادة والطاعة والذكر، ومحاربة البدع والخرافات الفاشية بين أبناء هذه الطرق، والانتصار للكتاب والسنة على أية حال..

هذه -إذن- هى الصوفية الصحيحة التى تعلم منها «حسن البنا» رقة القلب وصدق العاطفة وحسن الصلة بالله، وروحانية العبادة وأدب الخشية من الله، وليست تلك التى تعيش على الخرافات الكاذبة والبدع والانحرافات العقيدية، والذين ينتقدون «صوفية» حسن البنا عليهم أولاً أن يقرءوا ويعرفوا ما هى صوفية حسن البنا.

وفى الرابع من شهر رمضان عام ١٣٤١هـ - ١٩٢٣م، التقى حسن البنا وهو فى السابعة عشرة من عمره، بالشيخ عبدالوهاب الحصافى شيخ الطريقة ونجل المؤسس وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة وإذنه بأدوارها ووظائفها، واستمرت صلته بشيخه على أحسن حال، حتى أنشئت جمعيات الإخوان المسلمين وانتشرت فى ربوع مصر.. وفى تلك الفترة -

وهو فى السابعة عشرة من عمره- أسس «البنا» مع بعض إخوانه فى «المحمودية» «جمعية الحصافية الخيرية» واختير سكرتيرًا لها، وزاولت الجمعية عملها فى ميدانين: الأول نشر الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، ومقاومة المنكرات والمحرمات الفاشية فى تلك الفترة، كالخمر والقمار وبدع المآتم، والثانى مقاومة الإرساليات الإنجيلية التبشيرية التى استقرت فى بلدته «المحمودية» وكان قوامها ثلاث فتيات يبشرن بالمسيحية فى ظل التطبيب وتعليم التطريز، وإيواء الصبية من بنين وبنات!



فى القاهرة لأول مرة

أنهى «حسن البنا» دراسته في مدرسة المعلمين الأولية بدمنهور، ثم تقدم إلى القسم العالى المؤقت فى مدرسة (كلية الآن) دار العلوم فى العام الدراسى (٤١-١٣٤٢هـ) (٢٣-١٩٢٤م) وسافر -لأول مرة فى حياته- إلى قاهرة المعز، عاصمة الثقافة والفكر، ومدينة الألف مئذنة، واتخذ مسكنًا فى حى السيدة زينب، أحد أحياء القاهرة القديمة، فى المنزل رقم ١٨ بشارع مراسينه، وتقدم لامتحان القبول، وبتوفيق الله نجح رغم صغر سنه، وتم قيده طالبًا بالسنة الأولى بمدرسة دار العلوم، ليبدأ فى القاهرة مرحلة جديدة من الاحتكاك والتأمل والدراسة والنقاش حول قضايا ومشكلات المجتمع والأمة، وبدأ فى حضور الندوات ومجالس العلم، والقراءة فى أمهات الكتب ومتابعة الصحف والمجلات الأكثر انتشارًا فى القاهرة عنها فى الريف.

نجح «حسن البنا» فى السنة الأولى فى دار العلوم، وكان ترتيبه الثالث بين الناجحين، وإثر تعرضه لحادث من زميل له فى الدراسة كان يسكن معه، أعماه الحقد على تفوق «حسن» رغم صغر سنه، فألقى على وجهه وعنقه وهو نائم زجاجة بها «صبغة اليود» المركزة!، فقام «حسن» من نومه فزعًا واتجه إلى دورة المياه، وأزال ما استطاع من اليود قبل أن يسبب كارثة فى جسمه ومظهره، وعندما علم زملاؤه، المقيمون معه فى نفس الشقة، أوسعوا الفاعل ضربًا وطردوه من الشقة وقذفوا بأمتعته فى الشارع،

وعندما وصل الخبر إلى والدة «حسن» تـأثرت بشدة، وخيرته بين أمرين: إما أن ينقطع عن العلم ويعـود إلى الوظيفة (حيث كـان قد وصله خطاب التـعيين فى سلك التـدريس من مـديرية البحـيـرة) وإما أن تنتـقل الأم (والأسرة بالطبع) معه إلى القاهرة حتى لا يتكرر مـعه ما حدث، وانتصر الخيار الثانى، وحضر والده إلى القاهـرة، واختار مسكنًا للأسرة، ومحلاً لتـصليح السـاعات، وانتـقلت الأسـرة مـعه من بلـدة «المحمـودية» إلى «القاهرة» لتـستقر فى حى «السيـدة زينب» رضى الله عنها، وتتغـير أمور كثيرة فى حياة الشاب النابه وأسـرته، بل فى حياة وطنه وأمته والدنيا كلها بعد ذلك..

كانت «القاهرة» بالنسبة لحسن البنا عـالمًا جديدًا لم يألفه، فهو نشأ فى بيئة ريفية هادئة، حيث العـادات والتقاليد والأخلاق والآداب والسلوكيات العـامة والخـاصة، لا تزال الأقـرب إلى روح الإسـلام بالرغم من نقص الوعى وقلة العلم وانتـشار الأمـية.. بينمـا فى القاهرة -كـما كـتب فى مذكـراته- «مجتمع غـريب تزداد فيه مظاهر الانحـلال الخلقى، والتحلل القيـمى، وتكثـر فيه الدعـاوى الإلحادية والمادية المنحرفـة».. وشاركت الصحف والمجـلات -التى كانت تصدر فى تـلك الفترة رغم قلتـها- بل وتبارت فى نشر ما يتعارض مع الإسلام من أفكار وأخلاق وسلوكيات.. ورأى حـسن البنا، وهو لا يزال طالبًـا فى دار العلوم، أن الخطر شـديد، وراء هذا الطوفان العـاتى، وزاد من عمق إحـساسه بهـذا الخطر، تكوينه الدينى وتربيته الإيمـانية والسلوكية، التى تحدثنا عنهـا من قبل، وتيقن أن

المساجد وحدها لا تكفى فى صد هذه الهجمة الشرسة، وغرس الأخلاق والقيم النبيلة وآداب الإسلام فى سلوكيات الناس.

فكر «حسن البنا» فى مواجهة «عملية» لهذا الواقع المؤلم الذى رآه فى القاهرة.. واقع الانحلال والانحراف والإلحاد وغياب الروح الإسلامية، وساهمت طريقة تربيته واشتراكه فى أكثر من عمل جماعى لخدمة الإسلام فى تشكيل ملامح هذه المواجهة العملية، فاهتدى إلى ضرورة دعوة فريق من زملائه الطلاب الأزهريين، وطلاب دار العلوم الذين يعرفهم، للتدريب على الوعظ والإرشاد، ليس فقط فى المساجد، ولكن أيضًا - وهذا هو الجديد غير المألوف- فى المقاهى والمجتمعات العامة، بل ويذهبون إلى الريف والمدن المهمة لنشر الدعوة الإسلامية، وبالفعل دعا عددًا من زملائه وأصدقائه، واجتمعوا فى مسجد «شيخون» بمنطقة الصليبة فى حى «السيدة زينب» وتحدث معهم عن الواقع المؤلم وأهمية تغييره، وعن جلال هذه المهمة وضرورة الاستعداد العلمى والعملى لها، وخصص البنا جزءًا من مكتبته الخاصة، لتكوين مكتبة دورية خاصة بهذا المشروع، تمر على «الوعاظ الجدد» للتثقيف والتوجيه.. فهل نجح هذا المشروع غير المألوف؟ وكيف تقبله مجتمع القاهرة فى ذلك الوقت؟

كانت فكرة الوعظ فى المقاهى والمنتديات العامة، خروجا على ما ألفه الناس من أن مكان ذلك هو المسجد، والفكرة الغالبة أن هذا الجمهور، الجالس فى المقاهى. هم قوم بسطاء منصرفون إلى اللهو والترويح عن النفس، وبالتالى فالوعظ ثقيل عليهم، إنهم يجلسون للترويح عن أنفسهم

واحتساء المشروبات التى تهدئ وتخفف من متاعبهم، وأيضًا فإن أصحاب المقاهى، ربما يجدون فى هذا العمل -الوعظ- نوعًا من تعطيل مصالحهم، ومضايقتهم، وربما تنفير زبائنهم، لكن «حسن البنا» كان له رأى آخر. . كان يرى أن «هذا الجمهور أكثر استعدادًا لسماع العظات من أى جمهور آخر، حتى جمهور المسجد نفسه!. . لأن هذا شىء طريف وجديد عليه والعبرة بـ«حسن اختيار الموضوع» فلا نتعرض لما يجرح شعورهم، وبـ«طريقة العرض» فيعرض الوعظ بأسلوب شائق جذاب، وبـ«الوقت» فلا نطيل عليهم القول.

قدرته على الإبداع:

ونلحظ هنا أمرين، الأول: قدرة حسن البنا -فى هذه السن على الابتكار وابتداع الوسائل غير التقليدية وغير المألوفة، لتنفيذ فكرته وإقناع الآخرين بها، والثانى: حرصه على أن تكون الوسائل التى يستخدمها لدعم فكرته ونشر دعوته «عملية» و«إيجابية» و«واقعية» واهتمامه بالمدعو وطريقة تقبله لما يدعو إليه، والنزول إلى مستواه الثقافى دون ابتذال، وبالتالى القدرة على التأثير فيه. . وهكذا كان دائما.

وبعد نقاش وجدال، احتكم الجميع إلى التجربة العملية، فبدأوا بالوعظ فى المقاهى الواقعة بميدان صلاح الدين وأول منطقة السيدة عائشة، ثم فى أحياء السيدة زينب وطولون، ويذكر الأستاذ البنا فى مذكراته أنه «ربما ألقى فى تلك الليلة أكثر من عشرين خطبة فى أكثر من عشرين

مقهى، تستغرق الواحدة مـا بين خمس وعشر دقائق» ويصف ردود الفعل على هذه التجربة الفريدة فيقول: «. . كان شعور السامعين عجيبًا، وكانوا ينصتون فى إصغاء، ويستمعون فى شوق، وكان أصحاب المقاهي ينظرون فى غـرابة أول القـول، ثم يطلـبون المـزيد منه بعـد ذلك، وكـان هؤلاء يُقسمـون بعد الخطبة أننا لابد أن نشرب شيئًـا أو نطلب طلبات (شاى. . قهـوة. . ينسون. . إلخ) فكنا نعتذر لهم بـضيق الوقت، وبأننا نذرنا هذا الوقت لله، فـلا نريد أن نضيـعـه فى شىء، وكان هـذا المعنى يؤثر فى أنفسهم كثـيرًا. . لقد نجحت التجربة مائة فى المـائة، وعدنا إلى مقرنا فى «مسـجد» شيخـون، ونحن سعداء بهذا الـنجاح، وعزمنا على استـمرار الكفاح فـى هذه الناحية، وكنـا نتعهـد الناس بالموعظة العمليـة على هذه الطريقة فى كثير من الأحيان. . .».

لم تكن تلك الجهود البسـيطة، التى يقوم بها شباب متـحمسون قليلو العدد، قـادرة على مواجهة هذا التـيار الجارف، من التـحلل فى النفوس والآراء والأفكار، والذى تنامى وتزايد بعـد انتهـاء الحرب العـالمية الأولى (١٣٣٢-١٣٣٦هـ)-(١٩١٤-١٩١٨م)، فكانت مـوجة الإلحاد والإباحـية والتغريب والمادية، قـوية جارفة طاغية، لا يكاد يقف فى وجـهها شىء، تزيدها وتسـاعد عليـها الحـوادث والظروف الصعـبة التى تمر بـها مـصر والبلدان العربية والإسلامية، ففى تركيـا مثلاً أعلن الطاغية مصطفى كمال إلغاء الخـلافة، رمز المسلمـين السياسى، وكـذلك فصل الدين عن الدولة لأول مرة فى تاريخ المسلمـين، واندفعت تركيـا تتنصل من الدين فى كل

مظاهر الحياة، وأصبحت العلمانيــة كأنها الدين الجديد الذى يخضع له كل شىء، أما فى مــصر، فقــد تزايدت مظاهر التغــريب والتحلل من الدين، وتحولت الجامعة المصرية (جامــعة القاهرة الآن) من معهد أهلى يدرس العلوم الدنيــوية بعيــدًا عن منهج الدين، إلى جامــعة حكومــية تديرها الدولة وتحظى باهتمــامها ورعايتــها، واندفعت الجامــعة الجديدة الوليــدة وراء التــفكير المادى المــنقول عن الغــرب بحــذافيره، وعــرف أساتذتها وطلابهــا بالتحلل والانفلات من القيود والـتقاليد الاجتمــاعية والدينية . .

كان طبيــعيا إذن أن تجد هذه الموجــة العاتية رد فعل قــويًا فى الأوساط الإسلامية، وعلى رأسهــا الأزهر الشريف، حصن الإسلام، ومنارة العلم الشرعى، وكــذلك بعض الدوائر الإسلامــية الأخرى -على قلّتــها- لكن عــامة الناس فى ذلــك الوقت كانوا من الشــبــاب المتعــلم، وهو معــجب بالجديد الذى يســمعه من التــيار المادى التــغريبى، وإما من العــامة الذين انصرفوا عن التفكير فى هذه الأمور، لقلة الوعى، وقلة الحيلة!

صورة مؤلمة وواقع مرير:

عاش «حسن البنا» هذه الصورة بكل مرارتها، وتألم لهذا الواقع المذرى أشد الألم، واختلطت أنفاسه ونبــضاته بهذا الشعور الرهيب، وتململ فى نومه وفــى يقظته أشــد التململ. . كــان يرى معسكــر الإباحية والتــحلل والتغريب فى قوة وفتوة، ونشاط وحيوية، ومعسكر الإسلامية الفاضلة فى

تقلص وضعف وانكماش، وفى خمــول وهزال، واشتد به القلق حتى أنه قضى نحوًا من نصف شهــر رمضان فى ذلك العام (١٣٤٤هـ-١٩٢٦م)، فى حالة أرق شديد، لا يجد النوم إليه سبيلاً.

كان يخـفف من ألمه بعض الشىء، أن يفضى بهـذا الشعـور الذى ملأ عليه نفسه وقلبه وعقله وكيانه، إلى كثير من أصدقائه وزملائه، من طلاب الأزهر الشريف ودار العلوم، والمثـقفين من «الإخوان الحصـافية» التى لم يكن قد انقطع عنها بعـد. . كان هؤلاء جميعا يسمـعون منه، ويتحدثون معه فى وجوب القيام بعمل إسلامى كبـير مضاد لهذا التيار القوى، وكان يخـفف ألمه أيضًـا تردده على المكتـبة السـلفيـة، حـيث يلتـقى بالكاتب الإسلامى الكبـير (سورى الأصل) السـيد محب الدين الخـطيب، ويلتقى عنده بجمهرة من أعلام العلماء والفضـلاء، المعروفين بغيرتهم الإسلامية، وحميتهم الدينية، وعلى رأسهم العالم الجليل فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين (تونسى الأصل) -شيخ الأزهر فيما بعد- وأيضًا كان «حسن البنا» يتردد على مجالس العالم الكبير الشـيخ محمد رشيد رضا، صاحب المنار وتلميذ الإمام محمد عبده، وأيضًا الشيخ يوسف الدجوى والأستاذ محمد فريد وجدى وغيرهم من العلماء الفضلاء.

لم يهدأ الشـاب الثائر «حـسن البنا»، وما كان لهـذه الطاقة الإيمـانية المتوقدة، وهذه العاطفة الإسلامـية الحية، وهذا البركان الذى يغلى، وهذه الثورة ضد الانحلال والإلحـاد، أن تنطفئ حماستها أو أن تـخمد ثورتها، أو أن تخور قواها، حتى توصل إلى فكـرة إيجابية: لماذا لا يحمّل هؤلاء

القادة من علماء المسلمين ودعاتهم ومصلحيهم هذه التبعة؟! لماذا لا يدعوهم فى قوة إلى أن يتكاتفوا ويتعاونوا على صد هذه الهجمة؟ وأن يتفقوا على أسلوب أمثل للمواجهة؟.. فهؤلاء هم علماء الأمة العاملون، وأملها الأخير للخروج من هذه الأزمة، وهم المكلفون بالعمل والتوجيه والنصح والإرشاد، فإذا لم يتحركوا لخدمة دينهم، والدفاع عن إسلامهم، فمن يتحرك؟!.. وبالفعل بدأ الشاب الثائر بزيارة العالم الجليل الشيخ يوسف الدجوى -رحمه الله رحمة واسعة- وكانت بينه وبين الشيخ صلة روحية وعلمية، بحكم النشأة الصوفية، والسبب فى اختياره أن له صلات واسعة بكثير من رجال المعسكر الإسلامى، من علماء ووجهاء، وأن هؤلاء يحبونه ويقدرونه..

تحدث الشاب الثائر إلى الشيخ يوسف الدجوى فى أحوال الأمة الإسلامية، وما يمر بها من أزمات عنيفة، وتيارات منحرفة، وأفكار غريبة، فأظهر الشيخ الجليل الألم والأسف، وأخذ يعدد له مظاهر الداء، والآثار السيئة المترتبة على انتشار هذه الموجة فى الأمة، وانتهى من حديثه إلى ضعف الجانب الإسلامى أمام المتآمرين عليه، وكيف أن الأزهر الشريف حاول كثيراً أن يصد هذا التيار الجارف فلم يستطع، حتى جمعية «نهضة الإسلام» التى ألفها الشيخ الدجوى نفسه، ومعه لفيف من العلماء لتساعد فى المواجهة -كما يقول الشيخ- لم تجد نفعا، وانتهى الشيخ -بعد حديث طويل- إلى أنه لا فائدة من كل هذه الجهود المبذولة، وحسب الإنسان أن يعمل لنفسه، وأن ينجو بها من هذا البلاء!

كيف وصل الشيخ الدجوى، وهو من أكبر وأجل العلماء فى ذلك الوقت، إلى هذه الحالة من الإحباط واليأس وعدم القدرة على فعل شىء؟! وكيف استسلم لهذا الواقع المؤلم دون أن يبحث عن حل ينقذ هذه الأمة من براثن التغريب والمادية والانحلال والفوضى الفكرية؟.. وهل كان الشيخ الدجوى وحده فى هذا الميدان؟.. بالطبع لا.. لكن «حسن البنا»، الذى يبحث عن عمل كبير لدى من بيدهم مقاليد الأمور، وهم فى طليعة الأمة، رفض جواب الشيخ يوسف الدجوى، وتخيل أن هذا الرد سيكون رد من يلقى من العلماء والدعاة والقادة، فقال فى قوة: «إننى أخالفك يا سيدى كل المخالفة فى هذا الذى تقول، وأعتقد أن الأمر لا يعدو أن يكون ضعفًا فقط، وقعودًا عن العمل، وهروبًا من التبعات.. من أى شىء تخافون؟!.. من الحكومة أو الأزهر؟!.. يكفيكم معاشكم واقعدوا فى بيوتكم واعملوا للإسلام، فالشعب معكم فى الحقيقة لو واجهتموه، لأنه شعب مسلم، وقد عرفته فى القهاوى وفى المساجد وفى الشوارع، فرأيته يفيض إيمانًا، ولكنه قوة مهملة.. هؤلاء الملحدون والإباحيون، وجرائدهم ومجلاتهم لا قيام لها إلا فى غفلتكم؟ لو تنبهتم لدخلوا جحورهم.. يا أستاذ: إن لم تريدوا أن تعملوا لله، فاعملوا للدنيا، وللرغيف الذى تأكلون، فإنه إذا ضاع الإسلام فى هذه الأمة، ضاع الأزهر وضاع العلماء، فلا تجدون ما تأكلون ولا ما تنفقون، فدافعوا عن كيانكم، إن لم تدافعوا عن كيان الإسلام، واعملوا للدنيا إن لم تريدوا أن تعملوا للآخرة، وإلا فقد ضاعت دنياكم وآخرتكم على السواء..!»

البحث عن حل:

كان الأسى الذى ملأ قلب «حسن البنا» -ابن العشرين عامًا- على أحوال المسلمين، والمرارة التى أرقته الليالى الطوال فى ذلك الشهر الكريم -شهر رمضان المبارك- هى التى تنطلق من أعماق فؤاده، ويترجمها لسانه، ممزوجة بحماس الشباب وفتوة الإيمان، وانقسم الحضور فى مجلس الشيخ الدجوى إلى مؤيد للشيخ، مدافع عن آرائه وضعفه وقلة حيلته، وبين مؤيد للشاب المتحمس، مدافع عن ضرورة البحث عن حل، وفعل ما يجب فعله لاستنهاض الأمة، وأنهى الشيخ الدجوى المجلس بسبب حرصه على زيارة منزل أحد مريديه، وربما تخلصًا من هذا المأزق الصعب، لكن «حسن البنا» الذى يفور قلبه كالمرجل، وتضيق نفسه بهذا الواقع الأليم، حرص على مرافقة الشيخ فى زيارته، وعلى أن يجلس بجواره، ومازال يحدثه حتى أبكاه بدمع غزير، بلّل لحيته، وبكى معه بعض من حضر من شدة التأثر. ثم تساءل الشيخ الجليل: وماذا أصنع؟!.. فقال «حسن البنا» لا أريد إلا أن تحصر لى أسماء من نتوسم فيهم الغيرة على الدين، من ذوى العلم والوجاهة والمنزلة، ليفكروا فيما يجب أن يعملوه: يصدرون ولو مجلة أسبوعية، أمام جرائد الإلحاد والإباحية، ويكتبون ردودًا وكتبًا على هذه الكتب، ويؤلفون جمعيات يأوى إليها الشباب، ويُنشطون حركة الوعظ والإرشاد.. وهكذا من هذه الأعمال، فاستراح الشيخ لهذا الرأى، وأملى عليه أسماء العلماء والدعاة والوجهاء، وكان منهم أصحاب الفضيلة: الشيخ محمد الخضر حسين،

والشيخ عبدالعزيز جاويش، والشيخ عبدالوهاب النجار، والشيخ محمد الخضرى، والشيخ محمد أحمد إبراهيم، والشيخ عبدالعزيز الخولى، والسيد محمد رشيد رضا، ومن الوجهاء: أحمد باشا تيمور، ونسيم باشا، وأبو بكر يحيى باشا، ومتولى بك غنيم، وعبدالعزيز بك محمد، وعبدالحميد بك سعيد، وغيرهم كثيرون، واتفق الشيخ الدجوى مع الشاب الواعد حسن البنا على أن يمر كل واحد منهما على من يعرف، ثم يكون اللقاء بعد أسبوع.

ومن هذه النخبة الطيبة تكونت نواة «جمعيات الشبان المسلمين» بعد ذلك، وعقب الاجتماعات -بعد عيد الفطر من ذلك العام (١٣٤٤هـ- ١٩٢٦م)- صدرت مجلة «الفتح» الإسلامية تحت رئاسة الشيخ عبدالباقى سرور، ورأس تحريرها السيد محب الدين الخطيب، الذى تولى إدارتها وتحريرها بعد ذلك، فنهض بها خير نهوض، وكانت مشعل الهداية والنور لذلك الجيل من شباب الإسلام المثقف الغيور، وصدر العدد الأول منها يوم الخميس ٢٩ من ذى القعدة عام ١٣٤٤هـ - الموافق ١٠ من يونيو ١٩٢٦هـ، واستمرت تؤدى رسالتها لمدة ٢٤ عامًا حتى توقفت عام ١٣٦٨هـ- ١٩٤٩م، بعد وفاة الكاتب الإسلامى الكبير السيد محب الدين الخطيب، واستشهاد الشاب الثائر والإمام المجدد حسن البنا برصاص الغدر فى الثانى عشر من فبراير عام ١٩٤٩م.

ونتوقف هنا عند أربع نقاط مهمة، الأولى: أن «حسن البنا» حوّل الحماسة التى تفور داخله، والعاطفة المتوقدة فى نفسه ووجدانه، إلى طاقة

إيجابية فاعلة، ولم يجلس يبكى على الواقع المر دون أن يفعل شيئا، والثانية: أنه اتجه بهذه الطاقة الإيجابية الفاعلة، ليضعها أمام الرجل المسئول، المؤثر فى أوساط الإسلاميين، والذى له صلات بغالبيتهم، وله مكانته وقدره بينهم، ولم يتجاهل صاحب الشأن فى طرق بابه وحثه على العمل والحركة، والثالثة: أنه لم يتوقف عن وصف الواقع المؤلم للأمة، ولكنه قدم اقتراحات عملية، يمكن تنفيذها، وبالتالى لم ينته اللقاء إلا وكان هناك اتفاق واضح على عمل محدد، وهو ما أثمر عن بدء تأسيس «جمعيات الشبان المسلمين» التى مازالت تعمل فى الساحة الإسلامية حتى الآن، وكذلك صدور مجلة «الفتح» الإسلامية، والرابعة: أن الشيخ الجليل يوسف الدجوى تلقى حماسة «حسن البنا»، وربما قسوته فى بعض ألفاظه وكشف الحقيقة كما يراها، بقبول حسن، ولم يعنفه على جرأته فى الكلام، أو يكابر فى وصف الواقع بدعوى أن الشاب لا يزال صغيرًا قليل التجربة، أو . . إلخ هذه الردود السلبية، لكن الشيخ الجليل كان شجاعًا فى قبول الرأى الآخر، وكان صادقًا فى التفاعل معه، وهكذا العلماء الأجلاء . .

سطور مضيئة:

كانت شخصية «حسن البنا» فى تلك المرحلة، قد تكشفت عن إرادة قوية، وعزيمة فتية، وإيمان لا يتزعزع، بوجوب البحث عن مخرج للأزمة التى تعيش فيها الأمة الإسلامية، وعن حل عملى وواقعى وعاجل

لمواجهة هذه الموجة الإلحادية والإباحية، التى تكاد تعصف بمصر، قلب الأمة الإسلامية النابض، وقلب الأمة العربية وأملها فى النهضة والتقدم. . كانت ملامح المستقبل الطموح تختمر فى ذهن الشاب الثائر، وهذا الحلم الذى ملك عليه حياته، يتبلور فى مخيلته. . لقد تحول هذا الأرق العنيف، الذى حرمه النوم، وهذا السهاد الطويل، إلى سطور مضيئة فى موضوع «إنشاء» كتبه كواجب دراسى، قبيل تخرجه من دار العلوم (١٣٤٥هـ-١٩٢٧م)، وبعد شهور قليلة من لقائه الساخن والتاريخى مع العالم الجليل الشيخ يوسف الدجوى -رحمه الله- واجتماعات تأسيس مجلة «الفتح» ثم «جمعيات الشبان المسلمين». . كان موضوع الإنشاء هو إجابة عن سؤال: «اشرح أعظم آمالك، بعد إتمام دراستك، وبيّن الوسائل التى تعدها لتحقيقها». . وكأن واضع السؤال، كان يبحث عن «حسن البنا»!! . . وكان الجواب حاضراً فى ذهن وعقل ووجدان هذا الشاب النابه، فسطره فى ورقة الإجابة، كتب «حسن البنا» يقول: أعتقد أن خير النفوس، تلك النفس الطيبة، التى ترى سعادتها فى إسعاد الناس وإرشادهم، وتستمد سرورها من إدخال السرور عليهم، وذود المكروه عنهم، وتعد التضحية فى سبيل الإصلاح العام ربحًا وغنيمة، والجهاد فى الحق والهداية -على توعّر طريقهما، وما فيه من مصاعب ومتاعب- راحة ولذة، وتنفذ إلى أعماق القلوب فتشعر بأدوائها، وتتغلغل فى مظاهر المجتمع، فتتعرف ما يعكر على الناس صفاء عيشهم، ومسرة حياتهم، وما يزيد فى هذا الصفاء، ويضاعف تلك المسرّة، لا يحدوها إلى ذلك إلا

شعور بالرحمة لبنى الإنسان، وعطف عليهم، ورغبة شريفة فى خيرهم، فتحاول أن تُبرِئ هذه القلوب المريضة، وتُشْرِحَ تلك الصدور الحرجة، وتُسِر هذه النفوس المنقبضة، لا تحسب ساعة أسعد من تلك التى تنقذ فيها مخلوقًا من هوّة الشقاء الأبدى أو المادى، وترشده إلى طريق الاستقامة والسعادة..».

«وأعتقد أن العمل الذى لا يعدو نفعه صاحبه، ولا تتجاوز فائدته عامله، قاصر ضئيل، وخير الأعمال وأجلُّها، ذلك الذى يتمتع بنتائجه العامل وغيره، من أسرته وأمته وبنى جنسه، وبقدر شمول هذا النفع يكون جلاله وخطره، وعلى هذه العقيدة سَلَكْتُ سبيل المعلمين، لأنى أراهم نورًا ساطعًا، يستنير به الجمع الكثير، ويجرى فى هذا الجم الغفير، وإن كان كنور الشمعة التى تضيء للناس باحتراقها..

موضوع الإنشاء الذى يصلح كمادة للتدريس والتوجيه فى الجامعات مازال موصولاً، يقول حسن البنا.. وأعتقد أن أجلّ غاية، يجب أن يرمى الإنسان إليها، وأعظم ربح يربحه، أن يحوز رضا الله عنه، فيدخله حظيرة قدسه، ويخلع عليه جلابيب أنسه، ويزحزحه عن جحيم عذابه، وعذاب غضبه، والذى يقصد إلى هذه الغاية، يعترضه مفرق طريقين، لكل خواصه ومميزاته، يسلك أيهما شاء؛ أولهما: طريق التصوف الصادق، الذى يتلخص فى الإخلاص والعمل وصرف القلب عن الاشتغال بالخلق خيرهم وشرهم، وهو أقرب وأسلم. والثانى: طريق

التعليم والإرشاد، الذى يجامع الأول فى الإخلاص والعمل، ويفارقه فى الاختلاط بالناس، ودرس أحوالهم، وغشيان مجامعهم، ووصف العلاج الناجع لعللهم، وهذا أشرف عند الله وأعظم، ندب إليه القرآن العظيم، ونادى بفضله الرسول الكريم ﷺ وقد رجح الثانى -بعد أن نهجت الأول- لتعدد نفعه، وعظيم فضله، ولأنه أوجب الطريقين على المتعلم، وأجملهما بمن فقه شيئًا ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

«وأعتقد أن قومى -بحكم الأدوار السياسية التى اجتازوها، والمؤثرات الاجتماعية التى مرت بهم، وبتأثير المدنية الغربية، والشبه الأوروبية، والفلسفة المادية، والتقليد الإفرنجى -بَعدوا عن مقاصد دينهم، ومرامى كتابهم، ونسوا مجد آبائهم، وآثار أسلافهم، والتبس عليهم هذا الدين الصحيح، بما نسب إليه ظلمًا وجهلاً، وسترت عنهم حقيقته الناصعة البيضاء، وتعاليمه الحقيقية السمحة، بحجب من الأوهام، يحسر دونها البصر، وتقف أمامها الفِكَرْ، فوقع العوام فى ظلمة الجهالة، وتاه الشبان والمتعلمون فى بيداء حيرة وشك، أورثا العقيدة فسادًا، وبدَّلا الإيمان إلحادًا. . !».

. . وأعتقد كذلك أن النفس الإنسانية مُحبّة بطبعها، وأنه لابد من جهة تصرف إليها عاطفة حبها، فلم أر أحدًا أولى بعاطفة حبى من صديق، امتزجت روحه بروحى، فأوليته محبتى، وآثرته بصداقتى (وهو الأستاذ أحمد السكرى وكيل الإخوان المسلمين فيما بعد)، كل ذلك

أعتقده، عقيدة تأصلت في نفسي جذوتها، وطالت فروعها، واخضرت أوراقها، وما بقي إلا أن تثمر، فكان أعظم آمالي بعد إتمام حياتي الدراسية أملان، خاص: وهو إسعاد أسرتي وقرابتي، والوفاء لذلك الصديق المحبوب ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وإلى أكبر حد تسمح به حالتي ويقدرني الله عليه. وعام: وهو أن أكون مرشدًا معلمًا، إذا قضيت في تعليم الأبناء سحابة النهار، ومعظم العام، قضيت ليلي في تعليم الآباء، هدف دينهم ومنابع سعادتهم ومسرات حياتهم، تارة بالخطابة والمحاورة، وأخرى بالتأليف والكتابة، وثالثة بالتجول والسياحة.

.. وقد أعددت لتحقيق الأول معرفة بالجميل، وتقديرًا للإحسان و﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، ولتحقيق الثاني من الوسائل الخلقية: الثبات والتضحية، وهما ألزم للمصلح من ظله، وسر نجاحه كله، وما تخلق بهما مصلح فأخفق إخفاقًا يزرى به أو يشينه، ومن الوسائل العملية: درسًا طويلاً سأحاول أن تشهد لي به الأوراق الرسمية، وتعرفًا بالذين يعتنقون هذا المبدأ، ويعطفون على أهله، وجسمًا تعود الخشونة على ضآلته، وألف المشقة على نحافته، ونفسًا بعتها لله صفقة رابحة، وتجارة بمشيئته منجية، راجيًا منه قبولها، سائلة إتمامها، ولكليهما عرفانا بالواجب، وعونًا من الله سبحانه، أقرؤه في قوله ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ذلك عهد بيني وبين ربي، أسجله على نفسي، وأشهد عليه أستاذي، في وحدة لا يؤثر فيها إلا الضمير،

وليل لا يطلع عليه إلا اللطيف الخبير، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

أركان التصور الصحيح:

انتهى موضوع «الإنشاء» الذى كتبه «حسن البنا» ردًا على سؤال: اشرح أعظم آمالك بعد إتمام دراستك، وبين الوسائل التى تعدها لتحقيقها. وهو بالغ الدلالة على أن هذا الشاب النابه، كان قد استكمل أركان التصور الصحيح لرسالته فى الحياة كداعية، وغايته التى عاش من أجلها، ثم استشهد فى سبيلها.. وتجدر الإشارة هنا إلى عدد من النقاط المهمة حول موضوع «الإنشاء» وهى: **أولاً**: بدا «حسن البنا» وكأنه كان فى انتظار طرح مثل هذه القضية المهمة، وربما فى لهفة وشوق، كى يفرغ ما فى جعبته، بعد أن استبان له الطريق، واكتمل لديه التصور نحو بلوغ هدفه ورسالته وغايته، **ثانيًا**: أن كاتب «الموضوع» كان قد حسم اختياره واستقرت نفسه بين الاستمرار فى طريق التصوف، وبين الانخراط فى طريق الدعوة إلى الله والاختلاط بالناس، فاقتنع بالطريق الثانى، وربما زاد من إيمانه وقناعته، قيامه بالخطابة فى المقاهى والمنتديات، واحتكاكه بالجماهير وعوام الناس، وتأملاته فى حركة المجتمع ومراكز التأثير. **ثالثًا**: أن موضوع الإنشاء يعبر عن فقه عميق ودقيق لرسالة الداعية إلى الله، الذى يجب أن يكرس حياته ووقته وجهده لخدمة الناس وإسعادهم بالإسلام، وهو دليل واضح على مكانة الناس عند «حسن البنا»،

واعتبارهم الهدف الأسمى الذى يؤدى إلى رضا الله سبحانه ونيل مثوبته.

رابعًا: أن الموضوع حوى ألفاظًا ومعانى لها دلالات مهمة فى حياة الأستاذ «البنا» وفى تاريخ الجماعة والفكر الإسلامى، ومنها: (الإخلاص - العمل- التضحية- الثبات- الأخوة- الوفاء- الشمول- الإرشاد.. إلخ) وهى ألفاظ ومعان وردت فى أركان البيعة وفى ركن الفهم فى رسالة التعاليم، أحد أهم وأبرز رسائل الإمام الشهيد رحمه الله.

ولا شك فى أن من يقرأ موضوع الإنشاء، الذى كتبه هذا الشاب، المتوهج إيمانيا ودعويا، سوف يجد فيه ما يمكن إضافته من معان وإشارات ودلالات، فتاريخ الإمام المجدد لم يخرج عن هذا المنهج الذى سطره فى موضوع الإنشاء، وغايته التى رسمها وانحاز إليها فى حياته، واستشهد فى سبيل الدفاع عنها.

فى شهر ذى الحجة ١٣٤٥هـ - يونية ١٩٢٧م، حصل «حسن البنا» على دبلوم دار العلوم، وكان ترتيبه الأول على دفعته، ولم يشغله هذا الهم المقيم عن أن يتفوق فى تحصيل العلم، وفكر بعض أصدقائه فى أن يتقدم بطلب الترشيح للبعثة لاستكمال الدراسة فى الخارج، باعتبار أن ذلك من حق الطالب الأول فى الدبلوم دائمًا، ولكنه كان مترددًا بين حب الاستفادة والاستزادة من العلم، مهما تباعدت أراضيه وتناءت دياره، وبين العزوف عن تلك المظاهر، والرغبة فى سرعة العمل والحركة لتحقيق الفكرة، التى يقول عنها فى مذكراته: إنها «ملكت علىّ نفسى، وهى فكرة الدعوة إلى الرجوع إلى تعاليم الإسلام، والتنفير من هذا التقليد

الغربى الأعمى، ومن مفاسد قشور المدنية الغربية».. غير أن «دار العلوم» لم ترشح أحدًا للسفر إلى الخارج فى ذلك العام، فاستراح، وصدر قرار تعيينه مدرسًا فى مدرسة «الإسماعيلية الابتدائية الأميرية» وهى تعادل المرحلة الإعدادية الآن.

وشاء الله أن تكون مدينة «الإسماعيلية»، وهى إحدى مدن منطقة قناة السويس، وتقع إلى الشمال الشرقى من مدينة القاهرة، وتبعد عنها حوالى ١٠٠كم، هى البداية لهذه الدعوة الفريدة، وهذا البناء الضخم، وهذا الصرح العملاق، الذى انطلق من مصر، وامتد تأثيره وتنامى فى كل البلاد العربية والإسلامية، بل فى العالم أجمع، ولم يتوقف هذا الصرح الكبير عن النمو والامتداد والتأثير، حتى فى أحلك الظروف وأصعب الأجواء، منذ أن بدأت أولى الخطوات المباركة، فى تلك المدينة الهادئة، وعلى يد هذا الإمام المجاهد، ومعه ثلة من إخوانه الكرام، خير الرجال، ورجال الخير، جزاهم الله عنا وعن الأمة الإسلامية خير الجزاء.



حسن البنا فى الإسماعيليــة
ظهور دعوة الإخوان المسلمين

[ربيع الأول ١٣٤٦هـ - جمادى الآخرة ١٣٥١هـ]

[سبتمبر ١٩٢٧م - أكتوبر ١٩٣٢م]

استقل «حسن أفندى» -هكذا أصبح اسمه بعد أن اشتغل بالتدريس- القطار، متجهًا إلى مدينة الإسماعيلية فى أول العام الدراسى الجديد لاستلام عمله فى «مدرسة الإسماعيلية الابتدائية الأميرية»، حيث وصلها ظهرًا، كان ذلك فى ضحى يوم الاثنين ٢٣ من ربيع الأول ١٣٤٦هـ الموافق ١٩ من سبتمبر ١٩٢٧م، وبدت له المدينة من فوق قنطرة (كوبرى) محطة السكة الحديد، رائعة الجمال، أخذت بلُبّه، وسحرت بصره، فوقف برهة من الوقت، يحاول أن يقرأ فى لوح الغيب المستور، ما كُتب له فى هذا البلد الطيب، ويسأل الله تبارك وتعالى فى حرارة، وصفاء مناجاة، أن يقدر له ما فيه الخير، وأن يجنبه ما فيه الشرور والآثام، وشعر من أعماق قلبه، أنه لابد له فى هذا البلد من شأن آخر، غير شأن هؤلاء الغادين الرائحين من أهله وزائريه، وقد كان. . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

وصل «المدرس» الجديد إلى الفندق، وترك حقيبته وذهب إلى المدرسة ليقابل الناظر والمدرسين كى يتسلم عمله، وهناك تعرف على أحد أصدقائه القدامى من مدرّسى المدرسة؛ حيث نزلا سويًا فى «بنسيون» (بيت مكون

من مجموعة من الغرف، يتم تأجيرها لطالبى السكن، يوفر لهم المبيت دون الطعام، ولا يحتاج إلى إدارة كبيرة مثل الفندق وبالتالى يكون أرخص فى التكلفة لطالبى السكن)، وكان «البنسيون» الأول الذى نزلا فيه، لسيدة إنجليزية، ثم تركوه إلى آخر تملكه سيدة إيطالية.

وظل «حسن البنا» مدة أربعين يومًا كاملة، يقضى وقته بين المدرسة والمسجد العباسى والمنزل، لا يحاول أن يختلط بأحد، ولا يحاول أن يتعرف إلى بيئة غير بيئته الخاصة من زملائه فى وقت العمل، وقسّم وقت فراغه بين المطالعة أو تلاوة القرآن، وبين التعرف على البلدة الجديدة (مدينة الإسماعيلية) ودراستها دراسة فاحصة، وهو -فى كل ذلك- لم ينس أبدًا كلمة صديقه «محمد أفندى الشرنوبى» الذى جاء يودعه قبيل سفره إلى «الإسماعيلية» مع وفد من أصدقائه وزملائه: «إن الرجل الصالح يترك أثرًا صالحًا فى كل مكان ينزل فيه، وإنا لنرجو أن يترك صديقنا (أى حسن البنا) أثرًا صالحًا فى هذا البلد الجديد عليه..».

وبعد فترة استأجر «حسن أفندى» وصديقه منزلاً بدل «البنسيون»، ومن طرائف المصادفات أن هذا المنزل الجديد كان مكونًا من ثلاثة أدوار، استأجر مجموعة من اليهود الطابق السفلى، واتخذوا منه ناديًا وكنيسًا، واستأجر الطابق الأوسط مجموعة من المسيحيين، واتخذوا منه ناديًا وكنيسة، واستأجر هو وصديقه الطابق العلوى، وجعلوا منه مسكنًا ومصلى، وبالتالى اجتمع فى هذا المنزل أتباع الرسالات السماوية الثلاث، دون أن تحدث بينهم مشكلات!.

كانت «مدينة الإسماعيلية» في ذلك الوقت، لها وضع فريد، ففى غربها يقع المعسكر الإنجليزى، ببأسه وسلطانه، وهيله وهيلمانه، يبعث فى نفس كل وطنى غيور الأسى والأسف والمرارة، ويدفعه دفعًا إلى مراجعة هذا الاحتلال البغيض، وما جره على مصر من نكبات ومصائب جسام، وما أضاع عليها من فرص مادية وأدبية، وكيف كان الحاجز الوحيد دون نهوضها ورقيها، والمانع الأول من وحدة العرب واجتماع كلمة المسلمين.. وفى شرق المدينة يقع نوع آخر من الاحتلال، حيث مكتب إدارة «شركة قناة السويس الفرنسية» بروعته وسطوته، والذى كان يستأثر بالإشراف على كل المرافق العامة فى المدينة، مثل النور والمياه والنظافة، وكل ما هو من اختصاص المجالس البلدية، تتولى الشركة مسئوليته، حتى الطرق والمداخل التى تربط «الإسماعيلية» بغيرها من المدن المصرية، فى أيدى الشركة الفرنسية!.. فلا دخول إلا بإذنها ولا خروج إلا بموافقتها، بالإضافة إلى المنازل الفخمة المنتشرة فى حى «الإفرنج» بأكمله، ويسكنها موظفو الشركة الأجانب، بينما تقابلها مساكن العمال المصريين فى ضحالتها وصغر شأنها، حتى الشوارع الأنيقة فى حى العرب كانت كلها تحمل لوحات مكتوبة باللغة الفرنسية، لغة الاحتلال الاقتصادى لتلك المدينة!..

لم يكن «بالإسماعيلية» سوى مسجد واحد هو المسجد العباسى، وهو يمتلئ فقط يوم الجمعة بكبار السن، أما بقية أيام الأسبوع، فعدد رواد المسجد قليل جدًا، وكان تعداد المدينة فى تلك الفترة لا يتجاوز ٣٥ ألف

نسمة، يعملون فى الأعمال والحرف البسيطة، ولا أحد منهم يستطيع أن يرفع رأسه أمام الأجانب المحتلين، من الإنجليز والفرنسيين!

كانت المدينة بالنسبة لـ«حسن البنا» مليئة بالكثير والكثير من المعانى والدلالات والإيحاءات، التى ساهمت -بشكل كبير- فى تشكيل وتكييف وبلورة ماهية الدعوة الجديدة، بل والداعية نفسه، حيث أدرك بحاسته وفراسته، أنه رغم الطابع الأوروبى، والتقاليد الغربية الواضحة فيها - ومنها مثلاً أن الإجازة الأسبوعية كانت يوم الأحد، بينما الجمعة يوم عمل- إلا أن هناك شعوراً إسلاميًا قويًا فى أعماق قلوب أهلها، الذين يلتفون حول العلماء، ويقدّرون ما يقولون. .

أكبر مشكلات المسلمين:

فكّر «حسن البنا» طويلاً فى الاختلافات التى مزقت البلدة، ولم يكن يريد أن يضعه أحد فى صف أتباع هذا المذهب أو ذاك. . إنها أكبر مشكلات المسلمين طوال تاريخهم. . الفرقة والاختلاف والانقسام والتشرذم الذى يؤدى إلى العداوة والبغضاء والشحناء. . كانت هذه أول مشكلة يواجهها «حسن البنا». . إنه يريد أن يتصل بالجميع، وأن يخاطب الكافة، ويلم شتات الأهل، وقرر أن يبتعد -ما استطاع- عن الحديث إلى الناس فى المساجد، فجمهور المسجد هم الذين مازالوا يذكرون موضوعات الخلاف الفقهى، ويثيرونها فى كل مناسبة، وبالتالى لا جدوى من التحدث إليهم وهم على هذا الحال.

لم يكن أمامه إذن من طريق، سوى ما سلكه من قبل.. طريق الدعوة إلى الله فى المقاهى والمنتديات العامة، وبالفعل اختار ثلاث مقاه كبيرة، تجمع ألوفًا من الناس، ورتب فى كل مقهى درسين فى الأسبوع، أى ستة دروس فى الأسبوع، وواصل التدريس والوعظ بانتظام، وكما حدث فى «القاهرة» حدث فى «الإسماعيلية» فقد بدا الدرس غريبًا على الناس فى أول الأمر، ولكن سرعان ما ألفوه وأقبلوا عليه بعد ذلك..

كانت التجربة السابقة فى القاهرة، قد أفادته بشكل كبير -كما يقول فى مذكراته- «يتحرى الموضوع الذى يتحدث فيه جيدًا، بحيث لا يتعدى أن يكون وعظًا عامًا، تذكيرًا بالله واليوم الآخر، وترغيبًا وترهيبًا، فلا يعرض لتجريح أو تعريض، ولا يتناول المنكرات والآثام، التى يعكف عليها هؤلاء الجالسون، بلوم أو تعنيف، ولكنه يقنع بأن يدع شيئًا من التأثير فى هذه النفوس وكفى.. وهو كذلك يتحرى الأسلوب، فيجعله سهلاً جذابًا مشوقًا، خليطًا بين الفصحى والعامية أحيانًا، ويمزجه بالمحسات (الأشياء الملموسة) والأمثال والحكايات، ويحاول أن يجعله خطابيًا مؤثرًا فى كثير من الأحيان. وهو -بعد هذا- لا يطيل، حتى لا يمل الناس، فلا يزيد الدرس على عشر دقائق، فإذا أطال فربع الساعة، مع حرصه التام على أن يوفى، فى هذا الوقت القصير معنى خاصًا، يهدف إليه، ويتركه وافيًا واضحًا فى نفوس السامعين.. يقرأ القرآن قراءة خاشعة مؤثرة، ويكتفى بتوضيح المعنى الإجمالى دون تفصيل..».

استطاع «حسن البنا» -بهذا الأسلوب- أن يؤثر فى مستمعيه، حتى أنهم أقبلوا على تلك المقاهى ينتظرون موعد الدرس! وأخذوا يفيقون ويفكرون، ثم بدأوا يسألونه عما يجب عليهم أن يفعلوه، ليقوموا بحق الله عليهم.. لكن الداعية الجديد الواعى الحكيم، لا يتعجل الطريق، ولا يستعجل قطف الثمار، انتظارًا للفرصة السانحة، ومزيدًا من التهيئة للنفوس العطشى التى بدأت تستيقظ، فكان يجيبهم إجابات غير قاطعة، جذبًا لانتباههم، وتشويقًا لأسماعهم.. ونجح الأسلوب، وحدث ما توقع وتمنى.. ازداد إلحاح الأسئلة عما يجب أن يفعلوه، فأشار عليهم باختيار مكان خاص، يجتمعون فيه، بعد دروس المقهى أو قبلها، ليتدارسوا هذه الأحكام.. وتم له ذلك، ووقع الاختيار على زاوية نائية (مصلى صغير) فى أطراف المدينة، ولكنها فى حاجة إلى شىء من الترميم والإصلاح، كى تصلح للاجتماع وإقامة الشعائر والاستماع إلى الدرس.

وهنا تتجلى بركات النية الخالصة لوجه الله، وتتعانق مع روعة الأسلوب وصدق الحديث، لتظهر النتيجة المشرقة.. لقد أسرع هؤلاء الرجال البسطاء إلى الزاوية المهدمة، فرمموها، واستكملوا أدواتها فى ليلتين فقط، فقد كان منهم البنّاء والنقاش وغيرهم، وانعقد بهذه الزاوية الصغيرة أول لقاء.. وحرص الداعية الحكيم على أن يسلك بهم مسلكًا عمليًا خالصًا، فعلمهم الوضوء، ثم ذكر لهم فضائله الروحية والبدنية والدنيوية، من أحاديث رسول الله ﷺ، ثم انتقل بهم بعد ذلك إلى تعلّم

الصلاة، شارحًا أعمالها، مطالبًا إياهم بأدائها عمليًا أمامه، ذاكرًا فضلها ومخوفًا مِنْ تركها وإهمالها، وهكذا.. وفى أثناء ذلك يستظهر معهم سورة الفاتحة واحدًا واحدًا، ويصحح لهم ما يحفظون من قصار السور.. سورة سورة، وفوق كل ذلك لا ينسى أن يذكرهم بالعقيدة الصحيحة، ينميها ويقويها ويثبتها فى النفوس الظمأى، والقلوب الحيرى، بما ورد فى القرآن الكريم من آيات الذكر الحكيم، وأحاديث الرسول ﷺ، وسير الصالحين من صحابته الكرام، ومسالك المؤمنين الموحدين، لا يحاول هدم عقيدة فاسدة إلا بعد بناء عقيدة صالحة، فما أسهل الهدم بعد البناء وما أشقه قبل ذلك..

ونقف هنا وقفة أمام هذا الجهد الكبير والصبر الجميل لهذا الداعية النابه، لينزل من المستوى الثقافى والعلمى والدعوى، الذى يناسب شابًا متحمسًا تخرج من الجامعة، إلى المستوى البسيط: لغة وفهمًا وثقافة ومعيشة، لأناس من قاع المجتمع، لا يعرفون الوضوء أو الصلاة أو قراءة القرآن أو حفظ بعض آياته، وفى نفس الوقت ربما تسيطر على عقولهم بعض الخرافات أو الاعتقادات الفاسدة، هذا الجهد الكبير الذى بذله الداعية الواعى حتى نجح فى أن يتفاعل معهم وأن يحركهم ويوجههم، لابد من لفت الانتباه إليه، حتى يدرك الدعاة، من الشباب خصوصًا، ضرورة النزول إلى مستوى المدعوين، ثم الارتفاع بهم رويدًا رويدًا، بالحب والصدق والرفق إلى آفاق الدعوة الرحبة..

هواة الجدل ومحبو الخلاف:

استمر اللقاء في تلك الزاوية، فترة من الزمن، ثم انتقل إلى زاوية أخرى يملكها الحاج «مصطفى» بحي العراقية.. كان الدرس يستغرق ما بين المغرب والعشاء، ثم ينتقل إلى المقاهي التي بدأت فيها الدعوة، ليستمر توافد الناس إلى الزاوية، يستمعون أكثر، وينفذون ما يسمعون ويتجاوبون عمليًا لتوجيهات الداعية الناجح. لكن هواة الجدل، ومحبي الخلاف بدأوا يتسللون إلى تلك الدروس لإفسادها، وإطفاء الروح المشرقة التي تغمرها، لكن الداعية الحكيم، الذي درس وتأمل وعاش الليالي الطوال يفكر في كيفية الابتعاد عن هذه الفتنة، كان موفقًا غاية التوفيق في مواجهة هذه الأزمة، بل والاستفادة منها ببراعة فائقة.. لم يدّعِ «حسن البنا» أنه عالِم أو فقيه، ولكنه اختار وصف المدرِّس الذي درس بعض الأحكام الشرعية، ويريد أن ينشرها بين الناس، فلا محل إذن لجدال عقيم، أو نقاش سقيم، أو سفسطة لا طائل من ورائها، ومن أقواله في هذا المقام:

«.. إن هذه المسائل اختلف فيها المسلمون مئات السنين، ولازالوا مختلفين، والله تبارك وتعالى يرضى منا بالحب والوحدة، ويكره منا الخلاف والفُرقة، فأرجو أن تعاهدوا الله أن تدَعوا هذه الأمور الآن، وتجتهدوا في أن نتعلم أصول الدين وقواعده، ونعمل بأخلاقه وفضائله العامة، وإرشاداته المجمع عليها، ونؤدي الفرائض والسنن، وندع التكلف والتعمق، حتى تصفو النفوس، ويكون غرضنا جميعًا معرفة الحق، لا

مجرد الانتصار للرأى، وحينئذ نتدارس هذه الشئون كلها معًا، فى ظل الحب والثقة والوحدة والإخلاص». .

أرأيت هذا العمق فى فهم الدين وأصوله ومقاصده؟!. . وهذا الوضوح فى الهدف، والبساطة فى الأسلوب، والبراعة فى الاستفادة من المشكلة؟!. . إن الداعية الواعى وضع الأمور فى نصابها الصحيح، ووعد بالرجوع إلى البحث فى الأمور الخلافية، ولكن على قاعدة: الحب والأخوة والانتصار للحق وحده، وهو ما كان له تأثيره العجيب فى النفوس والقلوب، فتعاهد الحضور فى الدرس على ذلك. واستمر اللقاء فى تلك الزاوية بعد ذلك. بعيدًا عن جو الخلاف والجدال والشحناء والانتصار للرأى. وواصل الداعية الحكيم طرْقه لمعانى الأخوة والحب، ولطبيعة التسامح عند الخلاف ووجوب احترام الآراء الخلافية بين المسلمين، تحقيقًا لهدف أسمى هو: وحدة الصف المسلم، وبالتالى قوة وعزة وازدهار المجتمع والأمة الإسلامية. . لا يكاد يترك لقاءً دون أن يتحدث عن هذه العاطفة المؤثرة، بل إنه استمر -إلى أن لقى ربه- يذكر إخوانه فى كل لقاء بالحب والأخوة فى الله.

مرت قرابة خمسة أشهر منذ أن بدأ «حسن أفندى» أولى خطواته فى مقاهى مدينة الإسماعيلية، خطيبًا وواعظًا ومذكرًا ودارسًا لأحوال الناس وظروفهم وأشربتهم المتعددة، أى مدة ما بقى عام ١٩٢٧ وأوائل عام ١٩٢٨ (من نوفمبر إلى مارس) (جمادى الأولى. . إلى شوال ١٣٤٦هـ) وكان يضع نصب عينيه فى تلك الأشهر الخمسة، الاستمرار فى دراسة

أحوال الناس والمجتمع والأوضاع العامة دراسة دقيقة، وبالتالى التوصل إلى معرفة عوامل التأثير فى هذا المجتمع الجديد، الذى لم يألفه، وخرج من الدراسة والتأمل بأن هناك أربعة عوامل مهمة، تؤثر بقوة فى هذه المدينة، وتحدد وجهتها والرأى فيها، الأول: العلماء، والثانى: شيوخ الطرق الصوفية، والثالث: الأعيان، والرابع: نادى العمال التابع لجمعية التعاون.

وهنا تتجلى حكمة الداعية، الذى يريد لدعوته أن تنجح، ولغرسه أن ينبت، ولهدفه أن يتحقق.. أنه يسعى لفهم أدوات التأثير فى الواقع المحيط به، وبالتالى يستخدمها الاستخدام الأمثل، ليحقق أفضل النتائج فى أقل وقت ممكن، ويتفادى الفشل أو المعوقات أو الأخطاء المؤثرة.

وقد كان.. فمع العلماء.. حرص على أن يسلك مسلك الصداقة والتوقير والإجلال التام، وحرص على ألا يتقدم أحدًا منهم فى درس أو محاضرة أو خطبة، وإذا كان يتحدث أو يلقى درسًا، وقدم أحدهم، تنحى له وقدمه إلى الناس.. وكانت نتيجة هذا السلوك أن لقى منهم حسن الذكر، وطيب الكلام، والداعية الناجح لم يكن يفعل ذلك إلا وهو صادق مع نفسه ومع دينه ومع دعوته ومع الناس كذلك.

ومع رجال الطرق الصوفية، وقد كانوا كثرة كثيرة، كان يتأدب بأدب الطريق، وهو الخبير بها، ويخاطبهم بلسانها، ويقدمهم إلى الناس، ثم هو بعد ذلك يذكّرهم بالتبعة الملقاة على كاهلهم لهؤلاء الأتباع البسطاء،

الذين وثقوا بهم وأسلموهم قيادهم، ليدلوهم على طريق الله، ويرشدوهم إلى الخير، ثم يطلب إليهم فى النهاية أن يوجهوا كل جهودهم إلى إثارة الأذهان، وتوجيه العقول لهؤلاء الناس بالعلم والمعرفة، وإلى التربية الإسلامية الصحيحة، وجمع كلمتهم على عزة الإسلام، والعمل على إعادة مجده.. وقد نجحت هذه الطريقة مع كثير مع دعاة الصوفية، خصوصًا من الشباب المتعلم، الذى كان يفد إلى المدينة، ليعقد حلقات الذكر، ويخطب في الأتباع والمريدين، حتى أن بعضهم أخذ عهدًا على نفسه، أن ينفذ ما يصبو إليه «حسن البنا»، وكانوا يزورونه كلما نزلوا مدينة الإسماعيلية..

ومع الأعيان، كان هناك، إثر الخلافات الفقهية المذهبية المنتشرة فى المدينة وقتذاك، فريقان متصارعان، كل فريق متمسك برأيه، لا يرى حقًا أو صوابًا إلا فيه، فكان حرص الداعية الحكيم على أن يتصل بالطرفين، وأن يكون هذا الاتصال فى وضوح وجلاء، وألا يصنفه أحد مع هذا أو ضد ذاك، فإذا دخل بيت زعيم أحد الفريقين، تعمد أن يقول شيئًا عن منافسه فلان، وأنه لا يضمر له إلا الخير، ويذكره بالخير كذلك، وأنه من واجبهما أن يتعاونا على ما فيه مصلحة بلدهما، وأن الإسلام يأمر بهذا.. وبهذا الأسلوب الحكيم، استطاع أن يظفر بصداقة واحترام الطرفين، وكان لهذه الطريقة أيضًا أثرها الطيب فى اجتماع الطبقات المختلفة على دعوة الإخوان المسلمين، حين نشأت بعد ذلك..

أما العـامل الرابع المؤثر فى أهل المدينة فكان نادى العـمال؛ حيث فـيه نخبـة من الشباب المثـقف، الذى يريد أن يستمع ويتـعلم، وكذلك هناك فرع لجمـعية منع المسكرات، تُلقى فـيه المحاضرات حـول هذا الموضوع، فاتـصل «حسن أفندى» بهـما، وألقى فـيهـما بعض المحـاضرات الدينـية والاجتـماعية والتـاريخية، كـانت سببًـا، بعد ذلك، فى تهيـئة النفـوس والقلوب والعقول بين المثقفين فى المدينة، لتقبل الدعوة الجديدة. .

عمل إيجابى:

كان الداعية المـتحمس يعيش فى تلك التجربة، بكل كـيانه ووجدانه، ويبنى عليها آماله وأحلامه. . كـان يرويها بفكره الحى وإخلاصه العميق، والتزامـه الدقيق، وجـهده المتواصـل، فربما كانت -هى نفـسهـا- الآمال العراض التـى من أجلها سهـر الليالى الخـوالى، وجاءتهـا الفرصـة لترى النور، وتنبت شجـرتها المورقة على أرض الواقع الخصـيب. . كانت هذه الجهود العامة المتواصلة، فى المقـاهى والزوايا والأندية، وفى البيوت وعبر اللقـاءات والزيارات، كفـيلة بتـوضيح منهـج «حسن البنا» أمـام الناس، وكـيف يفهم الدعـوة إلى الله، وكـيف يخـاطب الناس خطاب المكلوم، الحريص عليهم، المحب لهم، وبالتالى اجتمع عليـه جمع غفير، يتابعونه فى المقـاهى وفى الدروس العامـة. . وكـان لابد أن تتحـول هذه الجهـود المتـواصلة إلى عمـل إيجابى، يراه الناس علـى أرض الواقع، ويلمســون أثره، ويجنون ثمـرته، وبالفعل بدأت أولى الخطوات المبـاركة. . أول لبنة من لبنات البناء السامق. . أول دفقة من دفقات الدم الذكى فى جسم هذه

الدعوة الرشيدة، دعوة «الإخوان المسلمين» بهذا الاجتماع العفوى القدرى في بيت «حسن البنا»!

وقبل الحديث عن هذا الاجتماع المبارك.. اجتماع تأسيس الإخوان المسلمين، نشير إلى أن هذه الجهود التى استغرقت «حسن البنا» استغراقًا كاملاً، لم تحل بينه وبين متابعته الدائبة لحركة التيار الإسلامى واتجاهاته في القاهرة، على ضعفها. فكان على صلة تامة بمجلة «الفتح» التى شارك في تأسيسها، وحرص على التعريف بها ونشرها فى مدينة الإسماعيلية، والإكثار من مشتركيها باعتبارها شعاع النور الأول، الذى يسير العاملون للحركة الإسلامية فى ضوئه، وشارك بالكتابة فيها لأول مرة فى العدد رقم ١٠٠، الصادر فى يوم ٢٥ من ذى الحجة ١٣٤٦هـ -الموافق ١٤ من يونية ١٩٢٨م تحت عنوان «الدعوة إلى الله»، أى بعد عامين كاملين من صدورها.

أيضًا كان «حسن البنا» على صلة تامة بمجموعة الشباب، التى تعرف إليها فى القاهرة، وتعاهد معها على العمل للدعوة الإسلامية، وكان شديد الإحساس بالسعادة والفرح حينما قرأ فى صباح أحد الأيام، نبأ الاجتماع الأول لتكوين جمعية «الشبان المسلمين» واختيار عبد الحميد بك سعيد -رحمه الله- رئيسًا لها، فكتب فورًا إلى رئيس الجمعية الجديد مهنئًا، ومعلنًا اشتراكه فيها، وواظب على دفع الاشتراك ومتابعة خطواتها بعد ذلك، وألقى فيها أول محاضرة مهمة له فى القاهرة، فى نادى الشبان المسلمين بشارع مجلس النواب (مجلس الشعب الآن) تحت عنوان «بين

حضارتين». . وظل يكن تقـديرًا لرجالها المؤسسين، والعامليـن فيها طوال حياته، بل إنها كـانت آخر مكان وطئته قدماه، قبيل استشهاده فى ١٢ من فبراير عام ١٩٤٩، بعد اجتماع سياسى لحل الأزمة بين الحكومة والإخوان.

تأسيس وانطلاق:

فى إحدى الليالى المبـاركة، زار «حسن البنا» فى بيته، ستـةٌ من شباب مدينة الإسماعيلية، الذين تأثروا بدروسـه ومحاضراته وخواطره الإيمانية، التى كان يلقيها فى المقـاهى والنوادى، والزوايا، وجلسوا يتحدثون إليه فى قوة وفتوة وحـماسة وصدق. . لم يكن هؤلاء الشباب من طبقـة المثقفين، الذين حصلـوا على شهادات عليـا، أو درسوا فى مراحـل متقـدمة، ولم يكونوا من طبقة الأعيان والكبراء والوجهاء، أو من أصحاب السلطة والمال والنفوذ، بل كانوا من بسـطاء الناس ومن أعماق المجتمع، يحـترفون المهن المتواضعـة. . هؤلاء الستة هم: حافظ عبـد الحميد ويعمل نجـارًا، وأحمد الحصـرى ويعمل حلاقًـا، وفؤاد إبراهيم ويعمل كـواءً (مكوجيًا)، وعـبد الرحمن حسب الله ويعمل سائقًا، وإسماعـيل عز ويعمل بستانيًا (فلاحًا)، أما آخرهم فكان زكى المغربى ويعمل فى إصلاح وتأجير الدراجات الهوائية (عـجلاتى). . لكن جـذوة الإيمان إذا خـالطت القلوب، وامـتلأت بهـا الجوانح، واستسلمت لهـا النفوس، صنعت الأعاجيب. . ولعل هذا المعنى هو أحد الخـصائص التى تميزت بهـا دعوة الإخوان المسـلمين، على طول تاريخـها المديد، وشـاء الله سبـحانه أنه تكون الـلبنة الأولى فى هذا البناء السامق من تلك النوعية البسيطة، الأقرب إلى حياة الفطرة السليمة. .

لقد نجحت دعوة الإخوان المسلمين منذ البداية فى أن تصل إلى عمق المجتمع، وأن تحتويه وأن تتمدد فى داخل طبقاته كلها. وكل فرد له فيها دوره ورسالته ومكانته، وليس المثقف بمتقدم على الأمى، ولا أستاذ الجامعة بمتقدم على الفلاح، إلا بتقواه لله، والتزامه وصدقه وبذله وعطائه، وهى إحدى خصائص دعوة الإسلام العظيم، حيث يقول رسول الله ﷺ: **«ليس لعربى فضل على أعجمى، ولا لأبيض على أسود، إلا بالتقوى»**.

تحدث الشباب الستة فى جلستهم المباركة، يخاطبون الداعية الحكيم: «لقد سمعنا ووعينا وتأثرنا، ولا ندرى ما الطريق العملية إلى عزة الإسلام وخير المسلمين، ولقد سئمنا هذه الحياة، حياة الذلة والقيود، وها أنت ترى أن العرب والمسلمين فى هذا البلد، لا حظ لهم من منزلة أو كرامة، وأنهم لا يعدون مرتبة الأجراء التابعين لهؤلاء الأجانب، ونحن لا نملك إلا هذه الدماء، تجرى حارة بالعزة فى عروقنا، وهذه الأرواح تسرى مشرقة بالإيمان والكرامة مع أنفسنا، وهذه الدراهم القليلة من قوت أبنائنا، ولا نستطيع أن ندرك الطريق إلى العمل كما تدرك، أو نتعرف السبيل إلى خدمة الوطن والدين والأمة كما تعرف، وكل الذى نريده الآن، أن نقدم لك ما نملك لنبرأ من التبعة بين يدى الله، وتكون أنت المسئول بين يديه عنا، وعمّا يجب أن نعمل، وإن جماعة تعاهد الله مخلصة على أن تحيا لدينه وتموت فى سبيله، لا تبغى بذلك إلا وجهه، لجديرة أن تنتصر، وإن قلّ عددها وضعفت عدتها..».

يا الله . . ! خمسة أشهر من جهد الداعية المخلص، وصبره ودعائه، صنع الله بها كل هذا العمق فى الفهم والإدراك لهذه المجموعة من بسطاء الناس، وهذا الإحساس العميق بثقل الأمانة الملقاة على عاتق المسلم، مهما كان وضعه فى المجتمع، وضرورة البحث عن طريق النجاة، وهذه الحماسة المتدفقة والإرادة القوية التى يحمل أصحابها أرواحهم، ويتركونها أمانة عند هذا الداعية الصادق، يفعل بها ما يرضى الله!

إن المتأمل فى سياق الأحداث، يدرك أن هذا اللقاء لم يكن وليد صدفة، ولم يأت عرضًا، أو أوجدته لحظة حماس أو تدفق إيمانى مؤقت، بل هو تطور طبيعى وتدرج منطقى، كان حسن البنا يخطط له ويتمناه، ويدرك أنه لابد واقع . . دعوة عامة يتفاعل معها الناس بشكل كبير، لابد أن يتداعى منهم نفر للبحث عن مخرج أو القيام بعمل إيجابى، يتحملون فيه الأمانة، نيابة عن ألوف وملايين الناس . .

وكانت جلسة روحية عاطفية نورانية، يقول عنها حسن البنا فى مذكراته . . كان لهذا القول المخلص، أثره البالغ فى نفسى، ولم أستطع أن أتنصل من حمل ما حُمّلت، وهو ما أدعو إليه وأعمل له، وأحاول جمع الناس عليه، فقلت لهم فى تأثر عميق: شكر الله لكم، وبارك هذه النية الصالحة، ووفقنا إلى عمل صالح، يرضى الله، وينفع الناس، وعلينا العمل وعلى الله النجاح، فلنبايع الله على أن نكون لدعوة الإسلام جندًا، وفيها حياة الوطن وعزة الأمة، وأخذ «حسن البنا» أيديهم فوضعها فوق

يده، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

متى تأسست الجماعة؟

ولكن متى كانت هذه الليلة المباركة، التى تشكلت فيها اللبنة الأولى للإخوان المسلمين؟..

يقول الإمام «البنا» فى مذكراته: إنها فى شهر ذى القعدة ١٣٤٧هـ - مارس ١٩٢٨م، ويضيف إليها عبارة: «فيما أذكر»، دليل على أن التاريخ ليس دقيقًا، فإذا كان التاريخ الهجرى دقيقًا من ناحية الشهر وليس السنة، فإن التاريخ الميلادى يجب أن يكون أبريل أو مايو ١٩٢٨هـ، لأن العشر الأوائل من ذى القعدة، تتوافق مع العشر الأواخر من أبريل، ومنتصف ذى القعدة يتوافق مع بداية شهر مايو، أما إذا اعتمدنا صحة التاريخ الميلادى، فإن العشر الأواخر من مارس تتوافق مع العشر الأوائل من شوال ١٣٤٦هـ، وهذا معناه أن هذه الجلسة كانت فى الأسبوع التالى لعيد الفطر المبارك من ذلك العام، ولا أظن ذلك صحيحًا، والذى أميل إليه أن هذه الليلة كانت فى العشر الأوائل من شهر ذى القعدة ١٣٤٦هـ- وليس عام ١٣٤٧هـ، الموافق للعشر الأواخر من شهر أبريل ١٩٢٨هـ.

يقول الشيخ عبد الرحمن حسب الله -رحمه الله- وهو آخر من توفى من هؤلاء الرجال الستة الذين حضروا تلك الليلة المباركة (توفى فى

أوائل التسعينيات من القرن الماضى)، فى لقاء صحفى لى معه فى عام ١٩٨٨، نشرته مجلة المجتمع الكويتية بمناسبة مرور ٦٠ عامًا على تأسيس الإخوان المسلمين.. يقول عن هذه الليلة: «كنت أحد ستة من الشباب الذين يحضرون دروس الأستاذ «حسن البنا» وأخذت من نفوسنا كل مأخذ، مما جعلنا نقبل عليه بعد انتهاء أحد الدروس، مصافحين ومعجبين ومستفسرين منه.. من هو؟ وأين يعمل؟ وأين يقطن؟ وهل يمكن أن يسمح لنا بزيارة خاصة، نتحدث معه فيها، فى شأن هذا البلد المحروم من معرفة الإسلام؟.. فتهلل وجهه سرورًا وبشرًا، واصطحبنا معه إلى حيث يقطن، وهناك كانت جلسة ربانية، وأسئلة وأجوبة شرح فيها مهمة المسلم فى الحياة، وما هو المطلوب منه أمام الله (سبحانه وتعالى)، وما الواجب عليه أن يعمله، فاقتنعنا كل الاقتناع، وتهيأت نفوسنا واستعدت لمواصلة اللقاء والاستزادة من المعرفة بواقع الإسلام والمسلمين، وكان «حسن البنا» -رحمه الله- يتحدث بتأثر عجيب، وكانت دموعه تسيل على لحيته».. واستمرت هذه الجلسة المباركة حتى قرب منتصف الليل..

كانت هذه بيعة مع الله، على العمل من أجل نصرة الإسلام، والالتزام بتعاليمه، وأن يعيشوا إخوانًا متحابين، يعملون للإسلام ويجاهدون فى سبيله، وتساءل أحدهم: بم نسمى أنفسنا؟.. وهل نكوّن جمعية أو ناديًا أو طريقة، أو نقابة حتى نأخذ الشكل الرسمى؟.. فرد حسن البنا قائلاً: لا هذا ولا ذاك.. دعونا من الشكليات ومن

الرسميات، وليكن أول اجتماعنا وأساسه: الفكرة والمعنويات والعمليات (أى الجوانب المعنوية الإيمانية والجوانب المادية العملية).. نحن إخوة فى خدمة الإسلام، فنحن إذن «الإخوان المسلمون».. وهكذا ولدت أول تشكيلة للإخوان المسلمين من هؤلاء الشباب الستة، حول هذه الفكرة وعلى هذه الصورة، وهكذا ظهر اسم «الإخوان المسلمون» بهذه البساطة، وبهذا الصدق والوضوح.

كان عدة اللبنة الأولى فى صرح «الإخوان المسلمين»: الشباب الواعد، وأساسها: الإخلاص العميق، ووسيلتها: التضحية والعطاء، وغايتها: إرضاء الله تبارك وتعالى والجهاد فى سبيله..

وانتهى الاجتماع -التاريخى- بالاتفاق على اللقاء ثانية، وتشاوروا فى مكانه وماذا يعملون فيه، واتفقوا على أن يستأجروا حجرة متواضعة فى شارع «فاروق» فى مكتب الشيخ على الشريف (وكان مكتبًا لتحفيظ القرآن الكريم) بمبلغ ٦٠ قرشًا شهريًا يجتمعون فيه، ويضعون أدواتهم وأغراضهم، على أن ينتفعوا من أدوات مكتب التحفيظ بعد انصراف التلاميذ، ابتداءً من العصر إلى الليل، وأطلقوا على هذا المكان اسم «مدرسة التهذيب للإخوان المسلمين» واتفقوا على دفع اشتراك شهرى قدره خمسة قروش -لمن أراد أن يدفع- حتى يتسنى لهم دفع الإيجار وبعض النفقات المطلوبة، فكانت هذه القروش القليلة، تسد حاجة «الجماعة» فى ذلك الوقت..

وكان للمنتسب إلى هذه المدرسة، منهج دراسى يهدف إلى تصحيح تلاوة القرآن الكريم، وفق أحكام التجويد، ثم حفظ آيات وسور، وشرح هذه الآيات والسور وتفسيرها تفسيرًا مناسبًا لمستوى المنتسبين، ثم حفظ بعض الأحاديث النبوية الشريفة وشرحها كذلك، وتصحيح العقائد والعبادات، والتعرف على أسرار التشريع وآداب الإسلام العامة ودراسة التاريخ الإسلامى وسيرة السلف الصالح والسيرة النبوية بصورة مبسطة، تهدف إلى إبراز النواحى العملية والروحية، ثم تدريب القادرين على الخطابة والدعوة تدريبًا عمليًا، بحفظ ما يمكن حفظه من الشعر والنثر ومادة الدعوة والوعظ، وبتكليفهم بالتدريس والمحاضرة فى المحيط الإخوانى أولاً، ثم المحيط العام بعد ذلك.

أول عمل مؤسسى:

كان هذا أول عمل «مؤسسى» فى تاريخ الإخوان، ولم يكن هذا المنهج الثقافى والعملى الأول، الذى تربت عليه المجموعات الأولى من الإخوان المسلمين هو كل شىء، فقد كانت معانى التربية العملية والسلوكية، التى تتفاعل فى نفوسهم بالمخالطة والتصرفات الواقعية والود والمحبة والأخوة فيما بينهم، من أقوى العوامل المؤثرة فى تكوين هذه الجماعة الجديدة، ولعل ما ذكره الإمام الشهيد فى «مذكرات الدعوة والداعية» عن نماذج عملية لبعض التصرفات والسلوكيات والقيم الرفيعة والمعانى النبيلة، التى كان يتحلى بها هؤلاء الكرام الأوائل، ما يؤكد عمق الأثر، الذى تركته

هذه الدعوة الوليدة فى نفوس أصحابها، وشدة تعلقهم بأهدافها وتفانيهم فى الالتزام بها، وحاجتهم الماسة إلى الداعية الناجح، الذى يوظف طاقاتهم الإيمانية والسلوكية، توظيفًا صحيحًا، ويكشف عن مكنون مشاعرهم وعواطفهم الإنسانية..

وفى نهاية العام الهجرى ١٣٤٦هـ، الذى يوافق نهاية العام الدراسى الميلادى (٢٧-١٩٢٨م)، وبعد قرابة الشهرين فقط من تلك الجلسة الإيمانية المباركة فى بيت «حسن البنا» كان عدد المنتسبين إلى «جمعية الإخوان المسلمين» فى مدينة «الإسماعيلية» سبعين فردًا، أو أكثر قليلاً، وهذا عدد كبير فى هذه المدة القصيرة، ولكنه الإخلاص والعطاء يصنعان الأعاجيب.

وانتهى إذن العام الدراسى، وفى الإجازة الصيفية، مارس «حسن البنا» لونًا جديدًا من وسائل نشر الدعوة، وهو الكتابة فى المجلات الإسلامية، مثل مجلة «الفتح» التى أدارها ورأس تحريرها الكاتب الإسلامى السيد «محب الدين الخطيب»، ونشر فيها أول مقالاته فى العدد رقم ١٠٠ الصادر فى ٢٥ من ذى الحجة ١٣٤٦هـ- ١٤ من يونيو ١٩٢٨م، وكان تحت عنوان: «الدعوة إلى الله»، ثم تصدّر مقاله الثانى الصفحة الأولى من العدد رقم ١٠٣ بعنوان: «الدعوة إلى الله.. على من تجب؟» ثم استكمل الموضوع فى مقاله الثالث المنشور فى العدد رقم ١١١، والذى صدر فى ١٥ من ربيع الأول ١٣٤٧هـ- ٣٠ أغسطس ١٩٢٨م، تحت عنوان «الدعوة إلى الله: سبيل الدعوة». وقد تناول فى هذه المقالات

الثلاث: منزلة الدعـاة فى الأمم، وحاجة الأمم فى دور انتقـالها إلى قادة حكماء ومرشدين أدلاء، ثم تحدث عن وجوب القيـام بالدعوة وتعميمها، وأوضح أن الدعوة إلى الله فـريضة واجبة مـعلقة بأعناقنا. . ونلمح -فى هذا المقال- آثار حركته فى الإسماعـيلية، من تفاؤله بنهضة الشباب، التى خلقت منهم دعاة صـادقين، كمـا تحدث «حسن البنا» فى مـقاله عن أهم الطبقات المـكلفة بالدعوة والقادرة عليـها، كما تحدث عـن وسائل الدعوة الخاصة وكـيفيتـها، وعن مكتبة المنزل، واقـترح خمسين كـتابًا تصلح أن تكون نواة لها. . كما نشرت له «الفتح» أيضًا محاضرة، كان قد ألقاها فى نادى «جمعـية الشبان المسلمـين» بعنوان «أضرار المقامرة ومـشروع ساحل الفيروز» ويستنكر فيها الدعـوة إلى إقامة ملهى ليلى «كازينو» عالمى للقمار على أطلال مدينة قديمـة، بالقرب من «أبو صوير» بالإسمـاعيلية، وذلك فى أعدادها أرقام: ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ثم واصل الكتابة فيها بعد ذلك على فترات متباعدة نوعًا ما.

ومع بداية العام الدراسى الجديد (٢٨- ١٩٢٩)م انشغل «حسن أفندى» قليلاً بموضوع جـديد، كان يمكن أن يؤدى -لو تحقق- إلى احتـمال وفاة الدعوة فى مهدها، أو تمزيقـها وتشتيتها فى أحـسن الأحوال، وهو سفره إلى الأراضى الحجـازية للتدريس فى مدارسـها، على سبـيل الإعارة من وزارة المعارف المصريـة. . كانت الأراضى الحجازية قد خـضعت فى ذلك الوقت لحكومة جديدة، وهى حكومة الملك عبد العزيز آل سعود، مؤسس المملكة العربيـة السعودية، وكـان «حسن البنا» يرى نفسـه صاحب فكرة،

يرجو لها أن تجد مجالها الصالح فى دولة ناشئة، هى أمل من آمال الإسلام والمسلمين، شعارها العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وتحرّى سيرة السلف الصالح وهى حكومة السعودية.. لكن حكمة الله اقتضت - ولله الفضل والمنة- أن ترفض الحكومة المصرية طلب الإعارة، بالرغم من تدخل بعض أصدقاء الأستاذ البنا، بدعوى أنها لم تعترف بالحكومة السعودية الجديدة، وربما كان الغرس الجديد فى مدينة الإسماعيلية، فى حاجة أكثر إلى الرعاية والحماية والصقل، حتى ينمو ويكبر ويشتد عوده، ويقوى على مواجهة الصعاب والعراقيل، وما أكثرها فى تلك الفترة، وربما كان سفر «حسن البنا» نهاية لمرحلة ودعوة لم تزل فى خطواتها الأولى..

أول دار للإخوان:

ضاق مكتب الشيخ على الشريف بالعدد المتزايد من الإخوان المسلمين، فبحثوا عن مكان أوسع، واستأجروا شقة مكونة من ثلاث غرف، وصالة بمبلغ ١٢٠ قرشًا، فى الشهر، بشارع «فاروق» وكتب عليها أول لافتة تحمل اسم «دار الإخوان المسلمين»، لكن الآمال والطموحات كانت أكبر من ذلك.. وانطلقت التساؤلات: لماذا لا يكون للإخوان دارهم ومسجدهم؟!.. وتحمس الجميع لهذا الهدف، وبدأوا بجمع التبرعات من أنفسهم، وكانوا قرابة العشرين فى تلك الجلسة، وبعد أسبوع واحد بلغت التبرعات خمسين جنيهًا من جيوبهم (وهو رقم كبير فى تلك الفترة). واعتبر «حسن البنا» هذا المبلغ فألاً حسنًا فى جدية

هذا المشروع الضخم، وبدأ هؤلاء المتحمسون، يتحدثون مع الناس عن هذا المشروع، وبحثوا عن قطعة أرض مناسبة، حتى وجدوها ملك الشيخ على عبد الكريم، ووقعوا معه عقدًا ابتدائيًا بتنازله عن الأرض للمسجد والدار.. لكن العراقيل بدأت تظهر، وأشاع البعض أن أتباع هذه الجمعية الوليدة، يدعون إلى «مذهب خامس» غير المذاهب الأربعة، وأنهم «شباب طائش» وأنهم.. وذهبوا إلى الشيخ على عبد الكريم صاحب الأرض، وملأوا نفسه بالوشايات والدسائس، حتى تراجع الرجل عن الاتفاق، لكن هؤلاء الشباب المتحمسين انتهزوها فرصة، واستفادوا من تنبه الأذهان إلى هذا المشروع، الذى أذاع المغرضون فشله، فأخذوا يشرحون أهدافهم، وغايتهم من ورائه، والناس يستمعون ويتأثرون، ويتبرعون!

وفى تلك الفترة، كانت «جمعية الإخوان المسلمين» قد تشكلت، وحصلت على الوضع القانونى، وأصبح لها نظام أساسى ولائحة داخلية ومجلس إدارة وجمعية عمومية، وأوراق ومستندات واشتراكات وأنشطة وقرارات.. إلخ، واختير الشاب النابه «عبد الرحمن حسب الله» السائق وأحد الستة الأوائل، كأول سكرتير لجمعية «الإخوان المسلمين».

واستمرت المعاكسات والشكاوى الكيدية فى حق الجمعية الناشئة، وفى حق العاملين بها، ومنهم الشيخ حامد عسكرية، الواعظ الأزهرى الذى عينته إدارة الوعظ والإرشاد بالأزهر الشريف، واعظًا للإسماعيلية، وهو أحد الأصدقاء القدامى للأستاذ «حسن البنا»، وأحد أكبر المناصرين

للدعوة والفكرة بكل ما يستطيع، وكان له دوره الكبير فى تعريف أهل المدينة بالمشروع الجديد وبالدعوة نفسها، ومع الأسف نجحت هذه الشكاوى الكيدية فى نقل الشيخ حامد إلى مركز شبراخيت التابع لمحافظة البحيرة.. ورغم أن هذا الانتقال -كما يصفه «حسن البنا»- كان فجيعة لإخوان الإسماعيلية، إلا أنه -ويا للمفارقة كان خيراً وبركة على الدعوة، إذ تأسست أول شُعبة للإخوان المسلمين خارج الإسماعيلية، بل وأقامت هذه الشعبة الوليدة، مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، وأقامت مسجداً فخمًا وعمارة ضخمة، أوقفت على المسجد والمدرسة!

حسن البنا شاعراً:

وعندما حان وقت مغادرة الشيخ حامد عسكرية مدينة الإسماعيلية لتسلم عمله الجديد فى «شبراخيت» أقام إخوان الإسماعيلية حفلاً لوداعه. حضره حشد كبير من الإخوان والمناصرين، وتحدث فيه عدد من الإخوان، كما خطب فيهم الأستاذ حسن البنا، ويذكر الشيخ عبد الرحمن حسب الله، فى مقابلته الصحفية فى عام ١٩٨٨، أن الأستاذ البنا قدم إليه قصيدة من الشعر من تأليفه، كى يلقيها فى الحفل، وكان من عادة الأستاذ البنا - كما يقول الشيخ عبد الرحمن -أن يكتب الخطب لبعض المتحدثين فى اللقاءات والمؤتمرات، ورغم تقدم سن الشيخ عبد الرحمن عند إجراء الحوار الصحفى (تعدى الثمانين)، ورغم أن الحفل مر عليه قرابة الستين عامًا، إلا أنه كان يحفظ الشعر فى ذاكرته القوية، وربما كانت هذه الأبيات النادرة هى الوحيدة التى تُعرِّف «حسن البنا» بأنه كان شاعرًا، ولم

أجد -من بين من كتبوا عن الإمام - من تـطرق إلى قرضه للشعر، تقول الأبيات متحدثة عن الجو العام وقتها:

أخى هل رأيت الخطب كيف ينوب ... وكـيف بـنا هذا الزمـان يـهـيبُ

تنـقلنـا الأيام حـــتى كـــأنما ... على رقـعة الشـطرنج نحن كعـوب

أمِنّا من الأيـام غـضـبـــة حـانق ... ولله فـــينـا قـــدرة وغـــيـــوب

وشوا ما وشوا، يا خيب الله سعيهم ... وإن مـساعى السـوء سوف تخـيب

وماذا عسى الواشـون أن يتحدثوا ... سـوى أن يقولوا مـخلص وأديب

دعـــوت لدين الله أكـرم دعـــوة ... تسـدد سـهم الحق فهـو يصـيب

وكنت إذا مـا تسـمو يومًـا لمنبـر ... هززت نفـوسًـا وارتعـتك قلوب

فسر فى حمى الرحمن لا تخش لومة ... ومهـما تكن بُـعْد، فأنت قـريب

انتهى حفل وداع الشـيخ حامد عسكرية، وازدادت حمـاسة «الإخوان» لتنفـيذ مـشروع بناء المسجد والدار، ويسـر الله للمشـروع أحد وجـهاء الإسماعيلية وهو الشيخ محـمد أبو حسين الزملوط -شقيق والدة المهندس عثمان أحمـد عثمان مؤسس المقاولون العرب- الذى تبـرع بمبلغ كبير فى ذلك الوقت (٥٠٠ جنـيـه) وتولى أيضًـا أمـانة الصنـدوق الذى يجـمع التـبرعـات، مما أعطى الثقـة والاطمئـنان فى نفوس المتـبرعـين، وبحث الإخـوان عن قطعـة أرض أخـرى، فلم يجـدوا إلا قطعـة فى آخـر حى العرب، يملكها محمد أفندى سليـمان، حيث أكرم الإخوان فى ثمنها،

لكن الشهور مرت، دو أن يرى الناس أثرًا للبناء فوقها، وبدأ الكلام يكثر حول أسـباب تأخر البناء، وعندمـا تيسر بـعض المال، أعلن الإخوان عن إقامة حفل لوضع حـجر الأساس يوم ٥ من المحرم ١٣٤٨هـ- الموافق ١٢ من يونيو ١٩٢٩م، أى بـعد ١٤ شهـرًا من انطلاق هذه الدعوة المبـاركة، وفى الموعـد المحدد أقام الإخـوان سرادقًـا فخـمًا، حـضره الجمـيع على اختلاف مـستوياتهم وطبقاتهم، وكـان اجتماعًا حاشـدًا، وتفاءل الإخوان خيرًا، وأعلنوا أنه لن يمضى شهر رمضان من ذلك العام (١٣٤٨هـ) حتى ينعم الله عليهم بافتتاح المسجد والدار.

الإنجليز ومسجد الإخوان:

وقبيل الانتهاء من بناء المسجد، تصادف أن مرّ البارون «دى بنوا» مدير شركـة قناة السويس، فـرأى البناء وأخذ بعض المعلومـات عنه، ثم أرسل لحسن البنا، يدعوه لمقـابلته فى مكتبه، فذهب إليـه، وعلم منه أن الشركة تود تقـديم المساعـدة الماليـة للمشـروع، ولهـذا تحتـاج إلى رسم هندسى ومذكرة عنه، فـشكره حسن البنا وانصرف، وبعد عدة شهـور دعاه ثانية، وأخبره أن الشركة اعتمدت مـبلغ (٥٠٠ جنيه مصرى)، فشكره وأفهمه - كما يـقول البنا فى مذكراته- «أن هذا المبلغ قـليل جدًا، ولم يكن منتظرًا من الشركـة تقديره، لأنها فى الوقت الذى تبنـى فيه على نفقـتها كنيـسة نموذجية تكلفها خمسمائة ألف جنيه مصرى أى نصف مليون جنيه، تعطى المسجد خمسمائة جنيه فقط (أى واحد على ألف)»!

وانطلقت شائعات المغرضين -حين علموا بهذه المقابلة- قائلين: إن الإخوان يبنون المسجد بمال الخواجات!، وتساءل البعض: كيف تصح الصلاة فى هذا المسجد الذى سيبنى بهذا المال؟!.. وكان رد «حسن البنا» على هذه الأقاويل حاسمًا: إن هذا مالنا لا مال الخواجات، والقناة قناتنا، والبحر بحرنا، والأرض أرضنا، وهؤلاء غاصبون فى غفلة من الزمن».. وشاء الله -جلت حكمته- أن يكون بناء المسجد قد تم، فوضع التبرع فى دار الإخوان المسلمين التى بنيت فوق المسجد، فسكنت الشائعات وهدأت النفوس بعض الوقت!

وهذا هو «فقه» حسن البنا، الذى يرى أن إدارة شركة قناة السويس، هى إدارة محتلة، وبالتالى فهى تعطى من «مالنا» لا «مالها»، ولا يزال العلمانيون واليساريون والشيوعيون، الذين يأكلون على كل الموائد، يروجون لمقولة: إن الإخوان تلقوا تمويلاً أجنبيًا، وبالتالى فهم عملاء للإنجليز! رغم وضوح هذا الموضوع -موضوع التبرع- ووضوح «الفقه» الذى تم قبوله على أساسه، لكنه الخلط والتزييف والتزوير، الذى يمارسه البعض، ممن يقبلون بل ويطلبون التمويل من أى جهة!.. ورغم ذلك فإن كانت هناك «شبهة» فى إدخال هذا المال، الذى تبرعت به إدارة شركة قناة السويس، فى بناء المسجد، فإن المسجد كان قد اكتمل، ودخل التبرع فى بناء دار الإخوان المسلمين.

وتم افتتاح المسجد ودار الإخوان المسلمين ليلة السابع عشر من شهر رمضان المبارك عام ١٣٤٨هـ- الموافق ١٤ من فبراير ١٩٣٠م، وكان

افتتاحه فى حفل ضخم، حضره إخوان شبراخيت (كانت شُعبتهم، التى يرأسها الشيخ حامد عسكرية، قد افتتحت فى شهر المحرم من نفس العام، فى حفل بهيج حضره «حسن البنا» ومعه عدد من إخوان الإسماعيلية). بالإضافة إلى أهل البلدة، وفاجأ الأستاذ البنا الجميع، بتقديم أخيه وصفيه الشيخ حامد عسكرية، ليكون إمامًا لأول صلاة جماعة فى مسجد «الإخوان المسلمين»، كما قص الشيخ أحمد السكرى، أخوه وصفيه أيضًا، شريط الافتتاح إيذانًا ببدء الاحتفال المبارك، وهنا نتأمل فى سلوك هذا الداعية المخلص، الذى ذابت نفسه فى دعوته فلم ير لها حظًا فى مقدمة أو شهرة أو فى مشهد أمام الناس!

وقد بعث افتتاح هذا المسجد، همة أهل الخير، من أبناء الإسماعيلية، لإنشاء المساجد، فازداد عددها، وكثر روادها، وهكذا كان مسجد الإخوان ودارهم، بداية مشروعات طيبة، فى هذا البلد الطيب، وكان اهتمام الإخوان -فى تلك الفترة- ببناء المساجد وأداء الصلوات فيها، وإقامة الدروس والحلقات واللقاءات، هو جزء من سعيهم إلى إحداث تغيير حقيقى فى نفوس الناس وفى سلوكهم، وبالتالى كان «معهد حراء الإسلامى» الذى أنشأه الإخوان مع افتتاحهم للدار، فرصة للتربية، والتوجيه والتعليم والتأثير، ولا شك فى أن التعرف على أهداف هذا المعهد التعليمى الجديد، سوف يلقى الضوء على مفاهيم وتوجهات الإخوان المسلمين منذ بدايتهم، ونظرتهم إلى وسائل هذا التغيير.

معهد متميز:

كان هذا المعهـد، الذى بُنى أعلى المسجد، متميـزًا عن المعاهد الأهلية فى ثلاث نقاط وهى: الشكل والجوهر والأسلوب.. فمن حيث الشكل: اشـتـرطت الإدارة زيًا خـاصًا، عـبـارة عن جلبـاب ومـعطف (چاكت) وطربوش أبيض وصندل (حذاء خـفيف) وكل ذلك من الصناعـة الوطنية وحدها، أمـا الدراسة فتبـدأ فى وقت مبكر من النهار، وتتـوافق إلى حد كبيـر مع أوقات الصلاة، فتنتهى الـفترة الأولى قبيل صـلاة الظهر، حتى يؤدى التلامـيذ جميـعًا الصلاة فى جمـاعة فى المسجد، ثم يعـودون بعد الغداء وقبيل العصر ليؤدوا الصـلاة جماعة كذلك.. ومن حيث الجوهر: انقسم منهج الدراسـة إلى ثلاثة أقسام: الأول: يـتوافق مع منهج المدارس الأولية (أقرب إلى المدارس الابتدائية الآن)، ليعد التلميذ للأزهر أو المعاهد الدينية، والثانـى: أقرب إلى المدارس التأهيلية (التعلـيم الفنى الآن)، فهو تعليم أولى فـى النهـار، وفى آخـره تعليم صناعـى عـملى فى المصـانع والورش الأهلية، التى يديرها منتمـون إلى الإخوان، والثالث: يتوافق مع منهاج المدارس الابتدائية الأميـرية (أقرب إلى المدارس الإعدادية والمتوسطة الآن)، ليجـهز التلمـيذ للمـدارس الثانوية ثـم العالية.. واهـتم الإخوان بالعملية التعليمية اهتمامًا كبيرًا، فأحضروا لها نخبة من المدرسين المؤهلين تأهيلاً عاليًا، أما من حيث الأسلوب، فقد كانت طريقة التعليم فى المعهد مبـتكرة، تتوافق مع أحـدث نظريات التربية فى تـلك الفترة، حـيث كان «حسن البنا» حديث عـهد بدراسة مناهج التربيـة فى «دار العلوم»، فكثير

من الدروس والمحاضرات كان يلقى فى الهواء الطلق، فى حدائق الإسماعيلية الغنّاء (مازالت الإسماعيلية إلى الآن تشتهر بكثرة الحدائق ويقصدها الزوار من مختلف الأماكن للاستمتاع بجوها وحدائقها)، والحروف الهجائية ومبادىء الحساب يدرسها التلاميذ بالمواد المحسوسة من الطين أو الصلصال، وكان للتلاميذ حرية واسعة فى أن يصارحوا المدرسين، بما يدور فى أذهانهم من تعب أو إرهاق أو سوء فهم، وبالتالى كانت العلاقة بين التلاميذ والأستاذ، وبين المدرسة والمنزل على أفضل ما تكون، من التعاون والتكامل والتوجيه.

كان «معهد حراء الإسلامى» بمصروفات دراسية مناسبة، ليس فيها إرهاق لأولياء الأمور، وزيدت نسبة المجانية بحسب ظروف الآباء (كان التعليم فى مصر فى تلك الفترة بمصروفات)، لكن العقبة الأساسية التى قللت -بعض الشيء- من نجاح المعهد نجاحًا كاملا -كما يأمل الإخوان- أن المدرس الذى يعتبر نفسه صاحب رسالة، لا طالب وظيفة، كان نادرًا، وبالتالى أدرك الأستاذ «حسن البنا» أهمية التربية الإيمانية والدعوية للأفراد، كى تؤدى المؤسسة -أى مؤسسة- رسالتها بنجاح كما يرجو ويتمنى..

وقد استمر معهد حراء الإسلامى عامين دراسيين أو ثلاثة، ثم تحول إلى مدرسة ابتدائية تتبع وزارة المعارف العمومية المصرية، بعد فترة قصيرة من انتقال الأستاذ البنا إلى القاهرة.

وبعد أن انتظمت الدراسة فى «معهـد حراء الإسلامى» للبنين، استأجر الإخوان دارًا فسيحة مناسبة، وأطلقوا عليها اسم «مدرسة أمهات المؤمنين» ووضع لها «حسن البنا» «منهجًا دراسيًـا عصريًا إسلاميًا، يجمع بين أدب الإسلام، وتوجيهه السامى للفتيات والأمهات والزوجات، وبين مقتضيات العصـر ومطالبه من العلوم النظرية والعمليـة»، واختار لها مـدرسات من فتيات الإسماعيلية اللاتى تخصصن فى التدريس، كما تولى الشيخ أحمد عبدالحميـد إدارتها، وقد أدت المدرسة رسالتها، حتى تسلمتـها -بعد فترة أيضًا- وزارة المعارف العـمومية، وكان قـد التحق بها -فى فتـرة عملها- أكثر من خمسمائة فتاة.. وكانت «مدرسة أمهات المؤمنين» هى الأساس، بعد ذلك لقسم «الأخوات المسـلمات»، والذى تألف من زوجات الإخوان وقريبـاتهم، وكان يعـرف هذا القسـم -الذى ظل تحت الإشراف المبـاشر للأستـاذ البنا- باسم «فرقة الأخـوات المسلمات» ووضع له لائحـة داخلية خاصة به.

ويتجلى حرص الإخوان المسلمين على الإسراع بافتتاح «مدرسة أمهات المؤمنين» بعد أن انتظمت الدراسة فى معهد حراء، كدليل على موقع المرأة من اهتمـام هذه الدعوة الوليـدة، بل إن دعوة الإخوان تكاد تـنفرد، بين الدعوات الحديثة، باهتمامهـا بالمرأة منذ بواكير نشاطها وخطواتها الأولى، فرسالة الإسلام -كـما فهمها الإخوان- هى لـلرجل والمرأة معًا، والأوامر والنواهى والتكاليف الشرعية، والحقوق والواجبات، كل ذلك نزل للرجل والمرأة، وهى مسئـولة مثل الرجل تمامًا عن تقدم الأمـة أو تخلفها، وعن

نهضتـها أو ضعفهـا، وتأتى أهمية هذه النظرة الإخوانيـة للمرأة فى تلك الفترة، إذا عـلمنا أن الفتاة لم تكن قد حـصلت على حقها الطبيعى فى تلقى العلم والدراسة فى المدارس والمعاهد المختلفة، حتى إن بعض شيوخ الأزهر الشريف، كانوا يرفضون مبدأ تعليم الفتاة فى المدارس. .

ملجأ التائبات:

لكن جهـود الإخوان فى مجـال توعية وتوجـيه وتربيـة وتهذيب المرأة المسلمـة، لم تقف عند هذا الحد، بل امـتدت لتـشمل إيجاد حل عـملى لإحدى مشكـلات المجتمع المصرى وقتـها، وهى بيوت الدعـارة (البِغاء) الذى كان مـسمـوحًا به من الناحيـة الرسمـية، فافـتتح الإخـوان «ملجأ التائبات» واستأجروا مبنى مستقلاً، تلتحق به كل من تتوب إلى الله تعالى من النساء المخطئات، وبالـفعل توافد عليه كثـيرات ممن تاب الله عليهن، وقد وفق الله الكثيـرات منهن فى حياتهن بعد ذلك، فتـزوجن، وأصبحن ربات بيوت صالحات، أو احترفن مـهنًا كالخياطة والطهى وتربية الأولاد، وكان لهذا العمل الجليل أكـبر الأثر فى نفوس أبناء الإسماعيلية جـميعًا، وكان الشـيخ على الجداوى -رحـمه الله- هو الذى يتـولى شئـون الملجأ والإنفاق عليه، وترتيب الدروس الدينية فيه.

وفى الأربعـينيات تقدم نـواب فى البرلمان بطلب إلغـاء بيوت البـغاء، واستـجابت الحكومة للإرادة الشـعبيـة، وألغت التراخيص الممنوحـة لها، وبالتالى انتهت المشكلة التى كانت وصمة عار فى مصر الأزهر، وساهمت

جهود الإخوان المسلمين حتى ذلك التاريخ، فى الحد من آثارها المدمرة فى المجتمع المصرى.

استقرت الدعوة نوعا ما فى مدينة الإسماعيلية، ورأينا كيف أن مدينة «شبراخيت» التى نُقل إليها الشيخ حامد عسكرية، باعتباره واعظًا فى الأزهر الشريف، كانت أول مدينة تصلها دعوة «الإخوان المسلمين» بعد الإسماعيلية، وكيف أن «حسن البنا» رغم حزنه على فراق أخيه وصديقه وساعده الأيمن الشيخ حامد، استبشر خيرًا بخروج الدعوة إلى منطقة أخرى، واعتبرها مرحلة جديدة لابد منها، وبالفعل بدأت الدعوة تنمو وتنتشر وتتمدد وتؤتى ثمارها هنا وهناك، ورغم الصعوبات والعراقيل التى واجهتها فى الإسماعيلية منذ يومها الأول، إلا أن إيمان وطموح «حسن البنا» لم يكن له حدود، حتى أنه كان يبشر إخوانه ومحبيه ومريديه، بأن هذه الدعوة، سوف تنتشر وتزدهر ليس فى مصر فقط، بل فى كل بلاد الدنيا، لأنها دعوة عالمية، وكأنه -فى تلك المرحلة المبكرة من عمر الدعوة- كان يقرأ فى لوح الغيب المستور، وما كتبه الله لهذه الدعوة المباركة من الذيوع والانتشار والتأثير فى كل بلاد الدنيا.

كانت قرية «أبو صوير» هى أولى المحطات الدعوية بعد ذلك، وتبعد عن مدينة الإسماعيلية خمسة عشر كيلو مترًا، ويسكنها عدد كبير من العمال، الذين يعملون فى معسكرات الجيش الإنجليزى ومدرسة الطيران، بالإضافة إلى بعض التجار والمزارعين، ويبدو أن «حسن البنا» -بعد أن استقرت الدعوة إلى حد ما فى مدينة الإسماعيلية- كان شديد الحرص

على الانطلاق بها إلى خارجها، إلى الدرجة التى جعلته يزور القرية مرات عديدة، يتجول فى شوارعها وطرقاتها، ويتفرس فى وجوه الناس، ويذهب إلى أحد المقاهى الذى يتجمع فيه الناس، ويلقى درسًا مؤثرًا، ثم يواصل زياراته إلى «أبو صوير» حتى يتمكن من افتتاح شعبتها، واختيار الشيخ عبدالله سليم ناظر المدرسة الأولية بالبلدة رئيسًا لها، ثم يرسل لها الشيخ عيد الأزهرى، الذى يقرأ القرآن ويحسن الصلاة والخطابة، دعما وتثبيتا للفكرة، على أن يأخذ راتبه من الإسماعيلية باعتبارها مهد الدعوة، لفترة حتى تستقر الدعوة فى نفوس أهالى «أبو صوير»، وكانت هذه هى القاعدة عند افتتاح فروع أو شُعب جديدة، ألا يحمّلها الإخوان أية تكاليف مادية، حتى تستقر ويقوى عودها.

الدعوة فى بورسعيد:

مدينة «بورسعيد» كانت هى المحطة التالية للدعوة، بعد أن قيض الله أحد شباب المدينة وهو الأخ أحمد المصرى، الذى عمل لفترة فى الإسماعيلية وتأثر بدعوة الإخوان وآمن بها، ثم عاد إلى بلدته وتجمع حوله نفر من أصدقائه، وتأثروا بما تأثر به، وشرح الله صدورهم، ورغبوا فى زيارة «حسن البنا» لهم، فاستجاب لهذه الرغبة، وفى إحدى الزوايا الصغيرة المتواضعة، تمت البيعة من شباب «بورسعيد» على الجهاد فى سبيل نصرة هذه الدعوة، ثم استأجر الإخوان بعد ذلك، شقة متواضعة فى شارع «المنيا» كانت مقرًا لأول شُعبة «بورسعيدية»، وفى غرة المحرم ١٣٤٩هـ - الموافق ٢٨ من مايو ١٩٣٠م، أقام الإخوان أول احتفالاتهم

العامة، ووجهوا الدعوة للأستاذ «البنا» لحضور الحفل وافتتاح الشعبة، لكنه أصيب فجأة بحالة احتقان شديد في اللوزتين، حذره طبيب المدرسة على إثرها من السفر إلى بورسعيد والمشاركة في الاحتفال، لكن صاحب الرسالة صمم على السفر، بعد أن استعرض موقف الإخوان وانتظارهم له، وسعادتهم إذا شاركهم حفلهم، وما بذلوه من أجل ذلك، ودعا الله سبحانه أن يفرج ما به من ألم، وأن يصرف عنه الاحتقان -الذي يمنعه بالطبع من الكلام -وسافر مضطجعًا من الإعياء، ووصل إلى مقر الاحتفال وصلى المغرب قاعدًا، حتى إذا جاء وقت العشاء، شعر ببعض التحسن وشيء من النشاط، ووقف في الحفل خطيبًا لا يكاد يسمع نفسه، وسرعان ما شعر بقوة ونشاط ونقاء في الصوت، وانتهى الحفل على خير حال، بعد أن تحدث لأكثر من ساعتين بفضل الله ورحمته. ثم بفضل صدقه وإخلاصه، وإخلاص الداعين له.

كان وصول دعوة «الإخوان المسلمين» إلى «بورسعيد» بداية لانتشارها في مناطق أخرى، ففي إحدى الحفلات العامة لإخوان «بورسعيد» حضر أفراد من منطقة «البحر الصغير» من «الجمالية» و«المنزلة» دقهلية، من باب حب الاستطلاع، لكنهم سرعان ما تأثروا بالدعوة، وبعد فترة تأسست أول شعبة هناك برئاسة الطالب الأزهري -وقتها- الشيخ مصطفى محمد الطير، وكان ذلك على الأرجح في عام ١٣٤٩هـ-١٩٣٠م، كما تأسست شعبة أخرى في «ميت مرجا سلسيل» بعد ذلك بفترة قصيرة برئاسة الشيخ أحمد المدني، وقبيل انتهاء فترة تواجده بالإسماعيلية زار «حسن البنا»

شعبة المنزلة، ثم تـوالت زياراته بعد ذلك إلى المنطقة، وافتتح فيـها الكثير من الشُعب منهـا: المطرية وميت خـضير ومـيت البصراط ومـيت سلسيل وبرمبال القديمة وميت عاصم والكفر الجديد وغيرها.

وفى أحد الأيام زار الأستاذ «البنا» مـدينة السويس زيارة عابرة، لمقابلة بعض الأصدقاء والزملاء، وتكررت زياراته ولـقاءاته وجلساته التى يشرح فيها أهدافه وأسلوبه، حتى تكونـت أول شعبة للإخوان المسلمين فى حى الأربعين، ورأسـها الشيخ عفـيفى الشافـعى عطوة، المأذون الشرعى لحى الأربعـين، ثم تكونت شُعـبـة أخرى فى المدينة نفـسـها ورأسـها الشـيخ عبدالرزاق البحيرى باشكاتب المحكمـة الشرعية، وكانت «السويس» تحظى فى نفس «حسن البنا» بمكانة خاصة وذكريات طيبة. .

ونلحظ هنا أن قـرية «أبو صوير» ومـدينة «السـويس» كانتـا المنطقتـان الوحيدتان فى تلك الفترة، اللتان ذهب إليهما «حسن البنا» بنفسه، يبحث عن الأنصار والأعوان، وينشر رسالته وفكرته، أمـا بقية المناطق (بورسعيد - البحر الصغير- جباسات البلاح بالإسماعيلية - ثم القاهرة بعد ذلك)، فقـد ذهب إليـها الأستـاذ البنا، بناءً على دعـوات من أنصار، وصلتـهم الفكرة وتأثروا بهـا، ويحتاجـون إلى إعلانها للنـاس، وإقامة مـؤسستـها (الشُعبة) وكذلك اعتمادها من قـبَل القيادة فى «الإسماعيلية»، وهذا يعنى أن دعوة «الإخـوان المسلمين» لم تكن فى حاجـة إلى وقت طويل، حتى بدأ الناس يعرفونهـا فى المناطق المجاورة، وتنتشر من خـلال النشاط العام لها فى مدينة «الإسماعيلية».

وفى منطقة «جباسات البلاح» فى صحراء «الإسماعيلية»، تكونت شعبة أخرى، بعد أن حمل عمال الجباسات الفكرة عن «إخوان» الإسماعيلية، وزارها «حسن البنا» وبايع الإخوان هناك على العمل من أجل نصرة الإسلام، ولا تذكر جباسات البلاح.. إلا ويذكر معها المجاهد الشيخ -الشهيد- محمد فرغلى، العالم الأزهرى المعروف بـ«الشيخ الجنرال» الذى تمثلت فيه شخصية الأخ المسلم المنتسب لهذه الدعوة فى تلك الفترة المبكرة، من قوة فى الحق، وعزة فى النفس، ووضوح فى الهدف، واعتزاز بالدين، وثبات على المبدأ، وتضحية فى سبيله، وثقة فيما عند الله تعالى، وقد أفرد له الأستاذ «البنا» فى «مذكرات الدعوة والداعية مساحة مهمة أشار فيها إلى تفاصيل شخصيته ومواقفه، ليبرهن على مدى تمكن الدعوة الوليدة من نفوس أبنائها الأوفياء، وما أحدثته من أثر، وما غيرته من سلوكيات.

عقبات وعقبات:

وبالرغم من أن مفهوم الأخوّة والحب فى الله والعمل فى سبيل الله، كان هو السمة الغالبة، التى تميز المنتمين إلى «الإخوان المسلمين»، وهناك عشرات الأمثلة التى تؤكد هذا المعنى، فى تلك المرحلة المبكرة، إلا أن الدعوة والداعية واجها معوقات كثيرة، ومتاعب جمة، وبالرغم من نجاح الأستاذ «البنا» فى أن يشق طريقه، وسط الخلافات والنزاعات الفقهية الصعبة وقتئذٍ، وهو دليل نجاح ولا شك، إلا أن الابتلاءات والفتن التى واجهته كانت كبيرة، منذ أن بدأ يخطو خطواته الأولى، نحو بناء مسجد

ودار للإخوان، وأدت إلى تراجع صاحب الأرض عن بيعها، كما أسلفنا، لكن الإخوان تجاوزوا هذه العقبة باختيار أرض بديلة حققوا بها هدفهم، وهناك أمثلة أخرى على كثرة العقبات، أما الاتهامات الشخصية التى تعرض لها الداعية الشاب فكانت كثيرة وغريبة ومضحكة فى آن واحد..

منها أن البعض أرسل عرائض مجهولة إلى السلطات المحلية بمدينة الإسماعيلية، بل وصل بعضها إلى إسماعيل صدقى نفسه، وكان رئيس الوزراء آنذاك، متهمين الأستاذ البنا بأنه «شيوعى متصل بموسكو، ويستمد المال من هناك، لأنه يبنى مسجدًا ودارًا، ويصرف على جمعية ودعوة، ولا يكلف الناس مالاً، فمن أين له هذا؟!».. وكانت «بدعة» الشيوعية فى ذلك الوقت «موضة جديدة» فى مصر والمنطقة العربية، بالإضافة إلى اتهامات أخرى منها أنه «وفدى» يعمل ضد النظام الحاضر (الحكومة الوفدية)، وأنه يتفوه ضد الملك فؤاد -والد الملك فاروق- بألفاظ يُستحى من ذكرها».. حتى بلغت هذه الاتهامات اثنتى عشرة تهمة!.. ونجحت هذه العرائض والشكاوى الكيدية، فى إثارة الغبار حول الداعية الشاب، وحوّل رئيس الوزراء الأمر إلى وزارة المعارف العمومية -التى يتبعها حسن البنا- حيث كلفت ناظر المدرسة بالتحقيق فيها وإبلاغ الحكومة، وانتهى الأمر فى النهاية بحفظ التحقيق، بل وتأثر مدير التعليم الابتدائى فى ذلك الوقت، وكان اسمه «على بك الكيلانى»، الذى زار «الإسماعيلية» خصيصًا لرؤية هذا الرجل «الخطير» وأعرب عن امتنانه لهذه الدعوة، ولمؤسسها، وطلب أن يكون عضوًا بها..!

ومن بين الاتهامات أيضًا، تلك العريضة التي وقعها «مسيحى» يقول فيها: إنه مدرس متعصب، يرأس جمعية متعصبة اسمها «الإخوان المسلمون» يفرق بين أبناء العنصرين فى الفصل الدراسى، فيتعمد إهانة التلاميذ من المسيحيين، وإهمالهم وعدم العناية بهم. .» وما إن وصل الأمر إلى المسيحيين بالإسماعيلية، حتى استنكروا هذا العمل أشد الاستنكار، وزار وفد من أعيان المسيحيين، وعلى رأسهم راعى الكنيسة الأرثوذكسية، المدرسة التى يعمل بها «حسن البنا»، لإعلان استنكارهم لهذا الاتهام الكيدى.

لكن أشد صور الفتن والمتاعب، التى واجهت دعوة الإخوان المسلمين فى تلك المرحلة المبكرة، كانت فتنة التطلع إلى المناصب!. . هى إذن فتنة من داخل الصف، يتحرك صاحبها يمينًا وشمالاً، يتحدث ويؤثر ويقنع، دون أن يواجه مباشرة. . والصف لم يكتسب بعدُ من الخبرة، بما يؤهله لمواجهة هذا النوع من المشاكل. . وأيضًا هذا النوع يأخذ وقتًا طويلاً حتى يتم اكتشافه واستئصاله وعلاج آثاره. .

والموضوع هنا يبدأ من أن «الإخوان» فى مدينة الإسماعيلية، كانوا يخشون من انتقال الأستاذ «حسن البنا» مرشد الجماعة، إلى مدينة أخرى (حيث تقوم وزارة المعارف العمومية كل فترة بنقل المدرسين من منطقة إلى أخرى)، وأدرك «حسن البنا» هذا المعنى، وربما كان يفكر أيضًا فى أنه قد أدى دوره فى هذه المدينة، وأن بقاءه فيها لم يعد مفيدًا للدعوة، بالصورة التى يرجوها لها، فرشح خليفة له يقوم بمسئولياته تجاه إخوانه، ورحب

الإخوان بذلك، وما أن طرح الأستاذ المرشد اسم الشيخ على الجداوى، وهو رجل بسيط وصفه «حسن البنا» بأنه «من أفضل الإخوان خلقًا ودينًا، وعلى قدر مناسب من العلم والمعرفة وحسن التلاوة لكتاب الله جيد المشاركة فى البحث، دائم الدرس والقراءة، إضافة إلى أنه من أسبق الناس استجابة للدعوة، ومن أقربهم إلى قلوب الإخوان، وأحبهم إليهم..» والمتأمل للفقرة السابقة، يمكنه أن يتعرف على صورة المسئول أو القائد، كما يراها حسن البنا، وكما تراها حركة الإخوان المسلمين، وما أن طرح الأستاذ المرشد اسمه حتى وافق عليه الإخوان بالإجماع «فى فرح شامل وسرور عجيب بهذا الاختيار» واقترح بعضهم أن يترك الشيخ الجداوى عمله -وقد كان نجارًا له دكان خاص به -وأن يعين إمامًا لمسجد الإخوان، وتُصرف له مكافأة تكفيه من مال الدعوة، حتى يستطيع أن يؤدى عمله على أكمل وجه.

ووافق الإخوان على هذا العرض، واستحسنه الأستاذ البنا، لأنه «يؤمن بفائدة التفرغ للعمل (الدعوى)».. ونتوقف هنا أمام هذا الفهم العالى، الذى أدركه مؤسس هذه الدعوة، وآمن به منذ خطواته الأولى، فإذا كان طبيعيًا أن يَهَب غالبية الإخوان فضول أوقاتهم أو أكثر قليلاً للدعوة، إلا أنه لابد من وجود البعض ممن يَهَب وقته وجهده كله للدعوة، وينفق عليه من مالها فى غير إسراف أو تقتير، والتفرغ للعمل الدعوى -إذا أحسن الاستفادة منه وتوظيفه- يؤدى إلى نتائج باهرة فى وقت قصير، ويعالج مشكلات فى مهدها، ويحمى الجماعة من التقصير

فى بعض واجباتها، والقيادة التى لا تؤمن بالتفرغ، أو التى لا تحسن توظيفه، تخسر الكثير والكثير.

المهم أن الشيخ على الجداوى قَبِلَ المهمة، بمكافأة ضئيلة، على رضى منه وطيب نفس، لكن التطلع إلى المنصب، والتوق إلى الرئاسة، غلب على سلوك أحد مدرسى «معهد حراء الإسلامى»، الذى كان يرى نفسه أحق بهذا المنصب، وأن فيه من «المؤهلات» التى ترشحه لهذا الموقع.. يقول عنه الأستاذ البنا فى مذكراته إنه «شيخ أريب، أديب، عالم، فقيه، لبق، ذلق اللسان، واضح البيان» وباقى القصة أدعو القراء الكرام إلى متابعتها فى «مذكرات الدعوة والداعية» للاستفادة من دروسها، وكيف عالجها الأستاذ المرشد بحصافته وحكمته وسعة أفقه، وكيف يمكن تجنب مثيلاتها بعد ذلك.

حسن البنا والقاهرة:

لم تنقطع صلة «حسن البنا» بالقاهرة، طوال فترة إقامته بالإسماعيلية، فهو كثير الزيارة لها، وفيها يقضى إجازته الصيفية السنوية، ولا عجب.. ففيها أسرته، وزملاء الدراسة فى دار العلوم، وفيها العلم والعلماء والدعاة، وفيها الأزهر الشريف «وجمعية الشبان المسلمين» وفيها مجلة «الفتح» ومجلة «المنار»، وفيها رجال الصحافة والسياسة والفكر والحركة الوطنية بشكل عام.. وكان يشارك فى ندواتها وأنشطتها كلما سافر إليها، ومنها احتفال «جمعية الشبان المسلمين» بالهجرة النبوية الشريفة فى غرة

المحرم ١٣٤٨هـ - يونيو ١٩٢٩م، وألقى كلمة فى الاحتفال تحت عنوان «ذكرى يوم الهجرة، والدعوة الإسلامية وأثرها» ونشرتها رسالة «المنتقى من محاضرات جمعية الشبان المسلمين»، كما كتب فى تلك الفترة العديد من المقالات، منها مقال تحت عنوان «حياتنا التهذيبية» نشر فى العدد الثانى من مجلة «الشبان المسلمين» الصادر فى جمادى الآخرة ١٣٤٨هـ - نوفمبر ١٩٢٩م، وكتب مقالاً فى العدد الثالث (رجب ١٣٤٨هـ- ديسمبر ١٩٢٩م) بعنوان «ملاحظات حول منهج التعليم»، ومن عناوين مقالاته الأخرى فى مجلة الشبان المسلمين: «أنجع الوسائل فى تربية النشء، تربية إسلامية خالصة» (جمادى الآخرة ١٣٤٩هـ-نوفمبر ١٩٣٠م) و«أثر التربية فى حياة الأفراد والأمم» (رجب ١٣٤٩هـ-ديسمبر ١٩٣٠م).

وفى مرحلة الإسماعيلية أيضًا كتب الأستاذ البنا العديد من المقالات فى مجلة «الفتح» منها: السبيل إلى الإصلاح فى الشرق «العدد ١٤٥ (١٥ من ذى القعدة ١٣٤٧هـ - ٢٥ من أبريل ١٩٢٩م)، ومنها: «هل نسير فى مدارسنا وراء الغرب؟!» العدد ١٦٥، ومنها: «واجب العالم الإسلامى أمام ما نزل به: ما هى الوسائل العملية الممكنة؟» العدد ٢٥٥ (٢ من صفر ١٣٥٠هـ - ١٨ من يونيو ١٩٣١م) ونلاحظ من مجمل هذه المقالات والمحاضرات أن اهتمامات الأستاذ «حسن البنا» قد تركزت على أسس الإصلاح وتربية المجتمع من خلال المنظور الإسلامى، وأن نظرته كانت تمتد لتشمل هموم الأمة الإسلامية بأسرها لتشخيص الداء ووصف الدواء..

وفى القاهرة أسس الأستاذ عبدالرحمن الساعاتى -شقيق حسن البنا- هو وزميله الأستاذ محمد أسعد الحكيم، جمعية دينية تحت اسم «جمعية الحضارة الإسلامية» وقد باشرت نشاطها العام بإلقاء الدروس الدينية والدعوة إلى الله، وانضم إليها عدد من الشيوخ الأجلاء، والشباب الغيور على دينه، منهم الشيخ محمد أحمد شريت والأستاذ حامد شريت والأستاذ محمود البراوى والشيخ محمد فرغلى، والشيخ جميل العقاد السورى الحلبى وغيرهم، ورأت «جمعية الحضارة» نشاط «جمعية الإخوان» بالإسماعيلية، فتدارس أصحابها الأمر، وبعد مناقشات واتصالات ومداولات اقتنع القائمون عليها بأن «التوحد خير من الفرقة، وبأن انضمام الجهود أولى وأفضل» فاتصلوا بالإسماعيلية، وتم ضم «جمعية الحضارة الإسلامية» إلى «جمعية الإخوان المسلمين» وأصبحت شعبة من شعبها، وأستأجرت مقرًا أوسع، بشارع سوق السلاح، وتكفل إخوان الإسماعيلية، بالمساعدة المالية -إلى حين- وعندما انتقل الأستاذ المرشد إلى القاهرة، كانت هذه الشعبة هى أول مقر للمركز العام للإخوان المسلمين بالقاهرة، ابتداءً من شهر جمادى الآخرة ١٣٥١هـ-أكتوبر ١٩٣٢م.

عاش «حسن البنا» فى مدينة «الإسماعيلية» ظروفًا صعبة، ليس فقط باعتباره راعيًا لهذه الدعوة الوليدة، متحملاً مسئوليتها، أو بسبب رعونة بعض الخصوم، الذين ناصبوها العداء، وشوهوا صورتها، وأثاروا الغبار حول أهدافها وغايتها، ولكن أيضًا بسبب بعض الذين انخرطوا فى

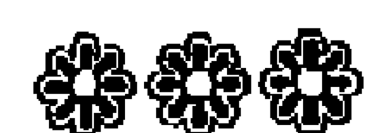
صفوفها، وحملوا رايتها، ويتحدثون باسمها، لكنها لم تصل إلى قلوبهم بعد، ولم ينصهروا فى بوتقتها، أو تصبغهم مفاهيمها العظيمة، وكان هذا الأمر الأخير يشق على الأستاذ المرشد كثيراً، فإذا كان قدره أن ينافح عن هذه الدعوة، مجليًا مفاهيمها، موضحًا أهدافها، مبينا وسائلها أمام الناس، وفى مواجهة الخصوم والأعداء، فكيف به يواجه بعض الذين يحملون الراية، لكنهم يَضعفون الجسد، وينخرون فى البناء من الداخل؟!.. أضف إلى ذلك أنه يعيش فى هذه المدينة وحيدًا، بعيدًا عن أسرته، التى تقويه نفسيًا ومعنويًا وترعاه ماديًا، وهو لا يزال فى سن الشباب الذى يحتاج إلى المساندة.

زواج المرشد العام:

وشاءت إرادة الله، أن يخفف عنه ما هو فيه، فأتاح له فرصة الزواج من أسرة من كرام الأسر فى الإسماعيلية، حيث خطب ابنة الحاج حسين الصولى، وهو أحد أعيان البلدة، وكانت هذه الأسرة متدينة بطبيعتها، زارتها والدة «حسن البنا» ذات مرة، فسمعت فى إحدى الليالى، صوتًا جميلاً يتلو القرآن، فسألت عن مصدر هذا الصوت، فقيل لها إنها ابنتنا «فلانة» تصلى العشاء، فلما عادت الأم إلى منزلها، أخبرت نجلها بما كان فى زيارتها، وألمحت إلى أن مثل هذه الفتاة الصالحة جديرة بأن تكون زوجة له، وكان ما أشارت به، فذهب «حسن البنا» إلى والدها، وكان من المناصرين له ولدعوته، فخطب ابنته، وتم الأمر -كما يقول- «فى سهولة ويسر وبساطة غريبة: خطوبة فى غرة رمضان تقريبًا (١٣٥٠هـ-يناير

١٩٣٢م)، فعقد في المسجد في ليلة السابع والعشرين منه، فزفاف في العاشر من ذي القعدة (١٣٥٠هـ-١٧من مارس ١٩٣٢م) وهو في عامه السادس والعشرين.

وعقب زواجه شعر بأن رسالته في الإسماعيلية قد انتهت، فالدعوة قد تأسست ولها منشآتها، وأبناء المدينة يحتضنونها ويلتفون حولها، وقد اختار من يخلفه فيها، أما هو فقد تزوج وأكمل نصف دينه، وخامره شعور عجيب، بأنه سينقل إلى مكان آخر، خارج الإسماعيلية، وشاء الله له ذلك، عندما حدّث الشيخ عبدالوهاب النجار، عن رغبته في الانتقال إلى القاهرة، وتحققت رغبته بالفعل في أكتوبر ١٩٣٢ - جمادى الآخرة ١٣٥١هـ، وانتهت بذلك «مرحلة الإسماعيلية» لتبدأ مرحلة أخرى في القاهرة، بكل حيويتها وصخبها وتفاعلاتها وقضاياها ورموزها ومشكلاتها. ولهذا حديث آخر، أسأل الله عز وجل أن يعينني على الوفاء به، إنه صاحب الفضل والمنة.



من وثائق «مرحلة الإسماعيلية»

مرحلة الإسماعيلية (ذو القعدة ١٣٤٦هـ- جمادى الآخرة ١٣٥١هـ) (أبريل ١٩٢٨م- أكتوبر ١٩٣٢م) هى مرحلة التأسيس لدعوة الإخوان المسلمين، وقد حفلت بالعديد من الوثائق والأوراق المهمة، مثلما حفلت بالعديد من المواقف والأعمال الجليلة، ويعتبر «القانون الأساسى للإخوان المسلمين» هو أول وأهم وثائق الجماعة فى مرحلة الإسماعيلية، وليس معروفًا على وجه الدقة تاريخ صدوره، وأغلب الظن أنه صدر فى عام ١٣٤٨هـ- ١٩٢٩م، ولا شك فى أن قراءة القانون الأساسى، وكذلك اللائحة الداخلية، تكشف بوضوح عن الموهبة الإدارية والتنظيمية والدعوية للأستاذ «حسن البنا» المرشد العام للإخوان المسلمين، والتى تأكدت بعد ذلك فى تنظيم جماعته وحركته تنظيمًا فريدًا، ليس فقط قياسًا إلى المرحلة التى ظهر فيها، ولكن إلى الآن، فمازال الإطار التنظمى فى هيكله العام، هو الإطار المعمول به، ليس فى مصر وحدها. بل فى مختلف فروع الجماعة المنتشرة فى جميع أنحاء العالم.. وهو إطار يتكون من الشُعبة والمنطقة والمكتب الإدارى ومجلس الشورى ومكتب الإرشاد العام، والأقسام الفنية المتخصصة التى تتبع مكتب الإرشاد (نشر الدعوة- التربية- الأخوات... إلخ)، دون أن يكون هناك أى تداخل أو اشتباك فى المسئوليات والاختصاصات والمهام

والصلاحيات، رغم المحن التى واجهت الجماعة -ولاتزال- وقد كان القانون الأساسى من المرونة والبساطة بحيث استوعب النمو المتزايد دائمًا، لفروع الجماعة وأقسامها وهياكلها الإدارية، ثم خضع بعد فترة، لتعديلات وإضافات كلما استدعى الأمر ذلك..

ومن وثائق المرحلة أيضًا رسالة «عقيدتنا» التى كتبها الأستاذ البنا كأول رسالة عقيدية فكرية تربوية، وصدرت مطبوعة فى عام ١٣٥٠هـ-١٩٣١م، وكان هدفها تحديد غاية الإخوان وتوضيح وسائلهم، كما تناولت أبعاد الدعوة الإسلامية واتساعها وشمولها، وصاغها الأستاذ المرشد فى سبع نقاط على هيئة: «أعتقد.. وأتعهد»، وهى نقاط أساسية تربوية وإيمانية وعملية فى آن واحد. يقول فى البند الخامس «أعتقد أن من واجب المسلم إحياء مجد الإسلام، بإنهاض شعوبه وإعادة تشريعه، وأن راية الإسلام يجب أن تسود البشر، وأن مهمة كل مسلم تربية العالم على قواعد الإسلام، وأتعهد بأن أجاهد فى سبيل أداء هذه الرسالة ما حييت، وأضحى فى سبيلها بكل ما أملك». وفى البند السابع يقول.. أعتقد أن السر فى تأخر المسلمين، ابتعادهم عن دينهم. وأن أساس الإصلاح، العودة إلى تعاليم الإسلام وأحكامه، وأن ذلك ممكن لو عمل له المسلمون، وأن فكرة الإخوان المسلمين تحقق هذه الغاية، وأتعهد بالثبات على مبادئها والإخلاص لكل من عمل لها، وأن أظل جنديًا فى خدمتها أو أموت فى سبيلها».

وقد علّق «أرنست رينان» المستشرق الفرنسي وأستاذ الدراسات العربية والإسلامية بجامعة السوربون بفرنسا على هذه الرسالة بقوله: «إن هذه الكلمات عميقة المبحث والقصد، وهي -لا شك- مستمدة من نفس المنهج الذي رسمه محمد (ﷺ) ونجح في تنفيذه، فأسس به أمة ودولة ودنيا، وقد زيد فيها بما يناسب روح العصر، مع التقيد بروح الإسلام.

آمن «حسن البنا» بالشورى منذ بواكير حياته، وكان حريصًا على الاستماع إلى الآراء المختلفة واحترامها حتى وإن اختلف معها، وبالرغم من أنه كان يمتلك من الصفات والمواهب والخبرات والبصيرة التي تؤهله للقيادة بمفرده، إلا أنه اختار طريق الشورى وإشراك الآخرين في القيادة واتخاذ القرار، تأسيًا برسول الله ﷺ وبالمنهج القرآني الذي طالب رسول الله بمشاورة أصحابه ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. يقول الشيخ عبد الرحمن حسب الله -رحمه الله- أحد الستة الأوائل الذين أسسوا دعوة الإخوان المسلمين، في حواره السابق الإشارة إليه: «كان الأستاذ البنا -رحمه الله- لا يقطع أمرًا دون أن يجمعنا ويستشيرنا، وكان من عادته الشورى في كل صغيرة وكبيرة. وكان يحب أن يسأله الأخ منا في كل شيء..».. فإذا كانت الشورى بهذه المنزلة عند شخص في وزن «حسن البنا» فكيف بمن يدانيه علمًا وخلقًا ومواهب وخبرات وبصيرة؟!

المؤتمر العام الأول للإخوان:

ومن هذا المنطلق، وبمجرد أن استكمل البناء التنظيمى للإخوان المسلمين أولى خطواته، دعا فضيلة المرشد العام.. حضرات نواب فروع (شُعب) الإخوان المسلمين بالقطر المصرى، إلى الاجتماع بمدينة الإسماعيلية، يوم الخميس الموافق ٢٢ من صفر ١٣٥٠هـ- ٩ من يوليو ١٩٣١م، للنظر فى شئون الجمعية، وتم بالفعل عقد الاجتماع بنادى الإخوان المسلمين، عقب صلاة العشاء، وانتهى مع صلاة فجر اليوم التالى، وفى صلاة الجمعة خطب كل نائب من نواب فروع الإخوان، الحاضرين خطبة الجمعة، ووعظ الناس بعدها بمسجد من مساجد الإسماعيلية، وكانت حفاوة أهل الإسماعيلية بالمشاركين كبيرة، وبعد صلاة العصر من يوم الجمعة، أقامت إدارة الإخوان بالإسماعيلية، حفلاً لتكريم المشاركين، بفناء مدرسة أمهات المؤمنين للبنات، توالى فيه الخطباء من أعضاء الجمعية ومن النواب، فى جو من الفرح والسرور.

وقد امتد الاجتماع قرابة ست ساعات (من العاشرة مساءً وحتى الرابعة من صباح اليوم التالى) وشارك فيه خمسة عشر ممثلاً لخمسة عشر فرعًا من فروع الإخوان المسلمين، ولأهمية هذا المؤتمر العام الأول نذكر أسماء المشاركين فيه وهم: الأستاذ عبد الرحمن أفندى الساعاتى (نائبًا عن القاهرة) -الأستاذ على أحمد الجداوى (نائبًا عن الإسماعيلية)، الأستاذ

محمد أفندى مصطفى طيرة (نائبًا عن بورسعيد)، الشيخ محمد فرغلى وفا (نائبًا عن جباسات البلاح)، الشيخ حامد عسكرية (نائبًا عن شبراخيت والأسمنية ومنشأة جديد)، الأستاذ أحمد أفندى السكرى (نائبًا عن المحمودية- بحيرة)، الشيخ مصطفى محمد الطير (نائبًا عن المنزلة وميت خضر- دقهلية)، الأخ المجاهد محمود أفندى عبد اللطيف (نائبًا عن الجمالية- دقهلية)، الشيخ أحمد محمد المدنى (نائبًا عن ميت مرجا سلسيل- دقهلية)، الشيخ عبد الفتاح عبد السلام فايد (نائبًا عن شبلنجة- قليوبية)، الشيخ محمد أفندى الجعار (نائبًا عن شعبة طنطا- تحت التكوين)، الشيخ عبد الرزاق البحيرى (نائبًا عن شعبة السويس)، الشيخ عفيفى الشافعى عطوة (نائبًا عن حى الأربعين)، الأستاذ مصطفى أفندى حسن الموافى (نائبًا عن شعبة دمياط- تحت التكوين)، الحاج محمد إسماعيل العسلوجى (نائبًا عن شعبة «أبو حماد» شرقية- تحت التكوين) بالإضافة إلى عبد الله أفندى حسين على نور اليمانى (ممثلاً لشعبة «جيبوتى»)!

ومن عجائب الأقدار أن يشارك فرع «جيبوتى» (إحدى دول جنوب شرق أفريقيا) فى أول اجتماع لمجلس شورى الإخوان المسلمين، بعد قرابة الثلاث سنوات من النشاط، ليؤكد أن هذه الدعوة المباركة، وهى لا تزال فى مرحلة الإسماعيلية، عاشت عالمية التنظيم، مثلما آمنت بعالمية الدعوة وشمولية الفكرة!

وكان من نتائج هذا المؤتمر العام الأول، تشكيل أول مكتب للإرشاد فى تاريخ الجماعة، ويتكون من عشرة أعضاء، بالإضافة إلى المرشد العام وهم كالتالى:

١- فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى محمد الطير- المدرس بالمعهد الأزهرى.

٢- فضيلة الشيخ عبد الحفيظ فرغلى- المدرس بالمعهد الأزهرى.

٣- فضيلة الأستاذ الشيخ حامد عسكرية- من علماء الأزهر الشريف.

٤- فضيلة الأستاذ الشيخ عفيفى الشافعى عطوة- من علماء الأزهر الشريف.

٥- الأستاذ أحمد أفندى السكرى- (عضواً منتدبًا).

٦- الأستاذ خالد عبد اللطيف أفندى- (عضواً منتدبًا).

٧- الأستاذ محمد أفندى فتح الله درويش- بالقاهرة.

٨- الأستاذ عبد الرحمن أفندى الساعاتى- بالقاهرة.

٩- الأستاذ محمد أسعد الحكيم أفندى- بالقاهرة.

١٠- الأستاذ محمد أفندى حلمى نور الدين- بالقاهرة.

وقد اختير الأستاذ محمد أسعد الحكيم سكرتيراً لمكتب الإرشاد، كما اختير الأستاذ محمد أفندى حلمى نور الدين أمينًا لصندوق المكتب، والأستاذ عبد الرحمن الساعاتى أفندى لإدارة شئون الجريدة.

ونتوقف هنا عند عـدد من الملاحظات المهمـة، أولها: أن أول تشكيل لمكتب الإرشـاد فى تاريخ الجمـاعة، ضـم أربعة من الأقـاليم وستـة من القاهرة، بالرغم من أن انتشار الدعوة فى الأقـاليم كان أكبر (١٤ نائبًا من ١٥)، وربما يعود ذلك إلى رغبة المرشد العام وقيادات الدعوة فى أن تكون القاهرة (العـاصمـة) هى نقطة الانطلاق بهذه الدعـوة إلى مخـتلف أنحاء القطر المصرى، والـتى انطلقت منها معظم الحـركات الوطنيـة والسياسـية والدينية، وبالتالى كان القرار باتخاذ القاهرة مقرًا رسميًا للدعوة -بعد ذلك بنحو عام- طبيعيًا، وكذلك انتقال «حسن البنا» إليها.

وثانيها: أن أربعـة من أعضاء مكتب الإرشاد العشـرة كانوا من علماء وشيـوخ الأزهر الشـريف، بما يؤكد أن الأزهر كـان -منذ البداية- أحـد أركان البنيـان الدعوى، ومن أكبر مـناصرى الجماعـة، ونلاحظ أيضًا أن ترتيب أسمـاء هؤلاء العلماء الأجلاء جاء فى المقـدمة، فى تشكيل مكتب الإرشاد العام، وتلاهم «الأفندية»..

وثالثها: أن مكتب الإرشاد كلّف الأستاذ عبد الرحمن أفندى الساعاتى -شقيق المرشد العام- بشئون الجريدة، وبما أن صحف الإخوان لم تكن قد صدرت بعـد، بل صدرت بعد ذلك بنحو عـامين كاملين، إذن فقـد كان المؤتمر الأول للإخوان، ومكتب الإرشاد أداته التنفيـذية، مشغولاً بالإعلام والصحافة إلى الدرجة التى يكلف فيهـا أحد أعضائه، بالمسئولية عن إدارة هذا الملف الإعلامى المؤثر.

ومن الواضح أن قضية التبشير (التنصير) والمبشرين، قد احتلت اهتمامًا خاصًا فى مناقشات ومـداولات المؤتمر العام الأول للإخوان المسلمين، إلى الدرجة الـتى يقرر فيـها المجـتمـعون «تكوين لجـان فرعيـة فى كل دوائر الجمعية (جمعية الإخوان) للعمل على تحذير الشعب من الوقوع فى حبائل المبشرين، بالطرق السليمة المشروعة . . ».

ومن الوثائق التى تمخض عنها المؤتمر الأول بهذا الخـصوص، العريضة التى رفـعها إلى جـلالة الملك فؤاد -ملـك مصر فى ذلك الـوقت- وجاء فيـها: «يتـقدم أعضـاء مجلس الشـورى العام للإخوان المسـلمين . . إلى جلالتكم، راجـين حمـاية شعبكم المخلص الأمـين من عدوان المبـشرين الصارخ على عقائده وأبنائه وفلذات كبده، بتكفيرهم وتشريدهم وإخفائهم وتزويجـهم من غيـر أبناء دينهم، الأمـر الذى حظره الإسـلام وحرّمـه، وتوعد فاعليه أشد الوعيـد . . » « . . لهذا لجأنا إلى سدتكم العلية، راجين أن يصدر أمـر جلالتكم الكريم، إلى حكومـتكم الموفقـة، بالضرب على أيدى هذه الفئـة، وإنقاذ الأمة من شرها، والوصـول إلى هذه الغاية بكل وسيلة ممكنة . . » وذكرت الوثيقة عـددًا من الوسائل التى تراها كفيلة برأب الصـدع وإنقاذ الأمـة من أيدى المعتـدين . . ووقع على العريضـة جمـيع المندوبين، وأُرسلت إلـى جلالة الملك وأصـحـاب المعـالى رئيس الوزراء بالإنابة ووزراء: الداخليـة والمعـارف والأوقـاف، ورئيس مـجلس النواب ورئيس مجلس الشيوخ.

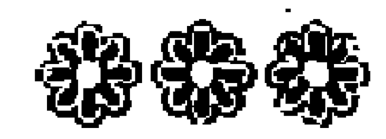
وتعتبر هذه «العريضة» أول اتصال وتفاعل بين «جمعية الإخوان المسلمين» وبين السلطات الرسمية الحكومية، وتؤكد العريضة كذلك أن غاية الإخوان ليست الإصلاح الجزئى أو المحلى، ولكنه الإصلاح العام وفى كل المجالات، وأنها لا تتهيب أن تخاطب ملك البلاد فى أمر تراه شديد الأهمية، ولمصلحة الأمة بأسرها.. كما قامت فروع الجمعية -فى تلك الفترة- بجهود كبيرة لمقاومة النشاط التنصيرى، الذى استغل سوء الأوضاع الاقتصادية وبساطة الإنسان المصرى، ليحاول تغيير عقيدته، وتبديل دينه، ولكن هيهات.

المؤتمر الثانى:

وبعد حوالى سبعة أشهر من تاريخ عقد المؤتمر العام الأول، استضافت مدينة «بورسعيد» الباسلة «المؤتمر العام الثانى للإخوان المسلمين» أو «اجتماع مجلس الشورى العام» وذلك فى اليوم الثانى من شهر شوال ١٣٥٠هـ- الموافق ١٠ من فبراير ١٩٣٢هـ- وأغلب الظن أن المؤتمر العام الأول هو الذى تأخر انعقاده، لأن باقى المؤتمرات التى عقدت بعد ذلك كانت -عادة- تعقد فى شهر ذى الحجة.. وقد تم توجيه الدعوة إلى المؤتمر، إلى نواب ونقباء وسكرتيرى الشُعب، وكذلك من صُرح له بذلك من أعضاء مكتب الإرشاد العام، وقد نجح هذا المؤتمر، وكان أهم قراراته: تكوين شركة صغيرة، لإنشاء مطبعة للإخوان المسلمين، على أن يقسم رأس مالها إلى أسهم، قيمة كل سهم «عشرون قرشًا»، وأعد مكتب

الإرشاد العام، قانون ولائحة شركة المطبعة المساهمة، ووزعه على جميع الشُعب فى أنحاء القطر المختلفة، وحدد مكتب الإرشاد شهرًا تقريبًا، كآخر موعد للاشتراك فى هذه الشركة.. وخَلُص المؤتمر العام الثانى إلى أن «المطابع للجماعات التى تعمل لنشر فكرة عامة، هى الدعامة التى ترتكز عليها فى أعمالها ونشر دعايتها..».

ويبدو أن ضيق الفترة الزمنية بين المؤتمرين: الأول والثانى، كان سببًا فى اقتصار المؤتمر الثانى على متابعة تنفيذ توصيات المؤتمر الأول، بالإضافة إلى مناقشة إنشاء شركة مساهمة، تهدف إلى إقامة مطبعة قادرة على طباعة الصحف والمجلات التى تفكر جمعية الإخوان فى إصدارها ونشرها.



الفهرس



سطور من حياة الإمام المجدد

حسن البنا

Hassan Albanna

بدر محمد بدر

Badr Mohamad Badr

designed by: 8GATES Hassan Ismail

